

Gaylord

PAMPHLET BINDER

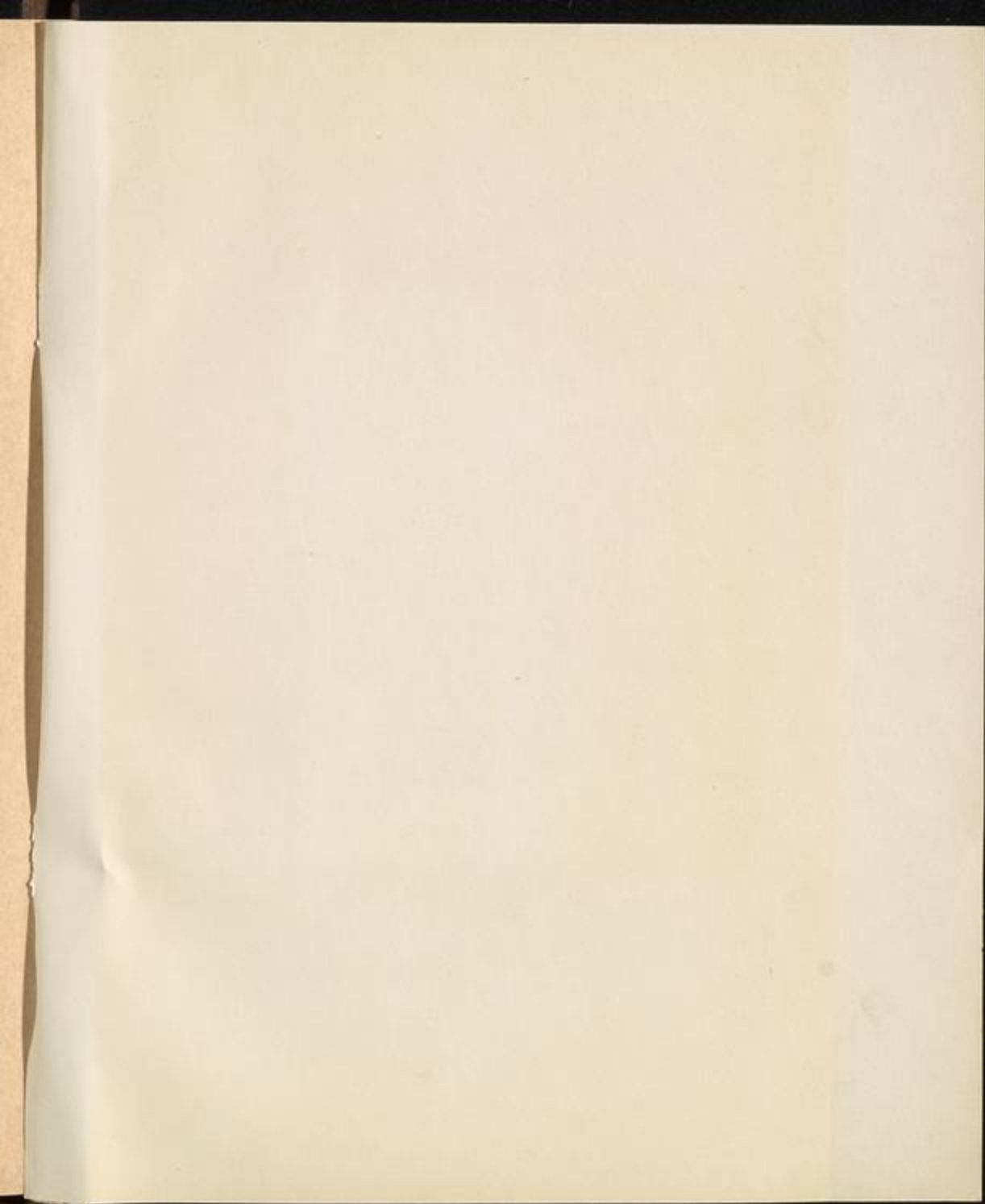
Syracuse, N. Y.

Stockton, Calif.

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY







رسالة

إلى النبي محمد بن أبي طالب

إلى

قسطنطين ملك الروم

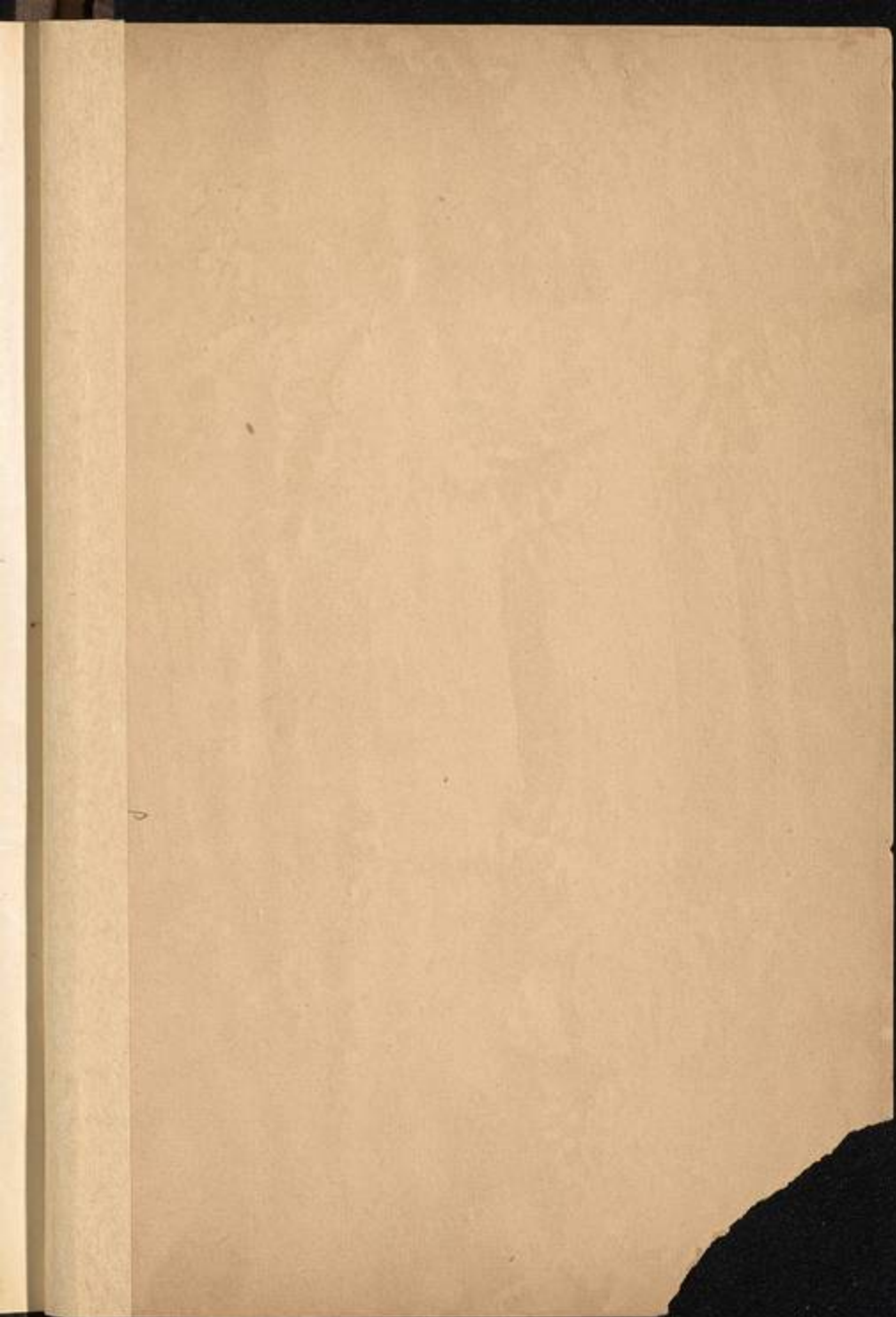
شرح وتعليق

أسعد لطفى حسن

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة »
« سواء بيننا وبينكم . ألا نعبد إلا »
« الله . ولا نشرك به شيئا . ولا »
« يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون »
« الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا »
« بأنا مسلمون » قرآن كريم

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٥ / ٥ / ١٩٣٦ م / ٧٠١



رسالة

أبي البرقع محمد بن أبي الليث

إلى

قسطنطين ملك الروم

شرح وتعليق

أسعد لطفى حسن

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة »
« سواء بيننا وبينكم . ألا نعبد إلا »
« الله . ولا نشرك به شيئا . ولا »
« يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون »
« الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا »
« بأنا مسلمون » . قرآن كريم

مطبعة معصية النبي صلى الله عليه وآله ببصر

١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م / ٧٠١

893.791

M898

1941541

هي الرسالة التي بعث بها
الخليفة العباسي هرون الرشيد

893.791
M 89

كلمة الشارح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلهي . أستلهمك العفو والرضى . وأسألك الممونة والتوفيق
وأحمدك وأثنى عليك جلّ جلالك . وعظم شأنك . إلهي لوجهك
الكريم أعمل . وللحصول على عفوك . والوصول إلى باب رحمتك
أسأل . فهبني من لدنك رحمة وهيي لي من أرى رشدا .

وصلّ على من كان للحق داعيا . وللإيمان بوحدانيتك
مناديا . الذي أرسلته للخلق كافة . وبعثت به للناس عامّة . سيدنا
محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وكل الأنبياء والمرسلين أجمعين
اللهم وقد جعلت في رسالة نبيك سيدنا محمد بن عبد الله النبي
العربي الهاشمي الدعوة للإسلام وهو الدين القيم ، وقد خاطبته
في كتابك الكريم :

(قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَبِيًّا مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي

وَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَبِذَلِكَ
أُمِرْتُ . وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ

فقام صلى الله عليه وسلم بما كلفته به . وقد أمرته بما جاء
في كلامك القديم :

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ . وَإِنْ لَمْ
تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ . وَاللَّهُ يَتَّصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

وقد تحدثت عن ذاتك القدسية :

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

فأدى الرسالة، ووفى الأمانة . وشهدت له جل جلالك قبل
رفعه إلى الرفيق الأعلى ، وقد رضيت عنه ومن دخل في
دينك الحنيف :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

وقد ظهر الإسلام فغير وجه الأرض وبدل العقائد، وجعل
من عبادة الأوثان عباد الرحمن . ومن المشركين بالله مؤمنين

بوحدانيته . ومن الجاحدين بوجوده خاضعين لجبروته . خاشعين لهيبته . ومن قساة القلوب رحماء . ومن الفجّار أبرارا . ومن الأشرار أخيارا . ثم انتشر نوره فعم الخافقين . ودخل الناس في دين الله أفواجا . وما قاتل أهله إلا من قاتلهم . وما نازعوا إلا من اعتدى عليهم أو حاربهم ، ثم رفع علمه مناديا :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ . فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ . فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْقِصَامَ لَهَا)

ثم توالى الأيام . وكرت الأعوام . وهو بالحق يظهر سلطانه وباليقين يُكسر أعوانه ، فيأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر ، ويدعو بالحسنى :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِلَا تِي هِيَ أَحْسَنُ)

وبهذا السبيل القويم بلغ غايته ، ووصل إلى المجد ، وما شيده لأهله من فخار ، غير أن لين القول وحسن الجدل ، قد أطمع أعداءه فيه ، وجعلهم يترصدون له الواقعة ، ويحكون خططهم لهاجمته ويدبرون حيلهم لمقاومته ، فاستهووا ضعاف

القلوب واستمالوهم إليهم وبذلوا كل جهودهم في إغوائهم (فَنَسُوا
اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)
ومن المحزن أن كان تراخي العلماء ، وانصرافهم إلى الدنيا ،
فتشجيع الطامعون ، وعموا عن أن للدين رباً يحميه ، ولو ضعف
المسامون بعد قوة ، واستكانوا بعد همة ، وخنعوا بعد مجد ،
وانكشوا بعد عز وعظمة ، وأصبحوا في موقف لا يُحمدون
عليه ، ولا يُحمدون على وقوفهم فيه .

الأسلام وهو دين الفطرة لا حاجة له إلى الدعوة بالقوة أو
الحيلة ، إذ لا صلة فيه بين العبد والمعبود إلا العمل بالأوامر ،
والابتعاد عن المنهيات ، ولا وسيلة إلى الاستمالة إليه إلا بتدبر
روحانيته والإقرار بوحداية الله جلّ وعلا وهو القائل وهو
أصدق القائلين :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) وهذا هو ناموسه العام:
(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا
يَبُلُغْنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ
وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَأَخْفِضْ لَهُمَا حَنَاحَ الذَّلِّ
مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ

إِمَّا فِي بُقُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ
غَفُورًا . وَءَاتِ دَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا
تُبْذَرُ تُبْدِيرًا . إِنْ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ
الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا . وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ
رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا . وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ
مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَحْسُورًا . إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ
بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْنَانٍ نَحْنُ
نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْهُمْ كَانَ خِطْنًا كَبِيرًا . وَلَا تَقْرَبُوا
الزَّوْجِيَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ
سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا . وَلَا تَقْرَبُوا
مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
بِالعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولًا . وَأَوْفُوا السَّكِيلَ إِذَا كَلِمْتُمْ
وَزِنُوا بِالْقِسْطِ السُّتْقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .
وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ

كُلُّ أَوْلِيكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا . كُلُّ ذَلِكَ
كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا . ذَلِكَ بِمَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ
رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْمَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي
جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا . أَنَاضِفَاكُمْ . رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِينَ وَاتَّخِذْ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا . وَلَقَدْ صَرَّفْنَا
فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا . قُلْ
لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ
سَبِيلًا . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

وهذا ما كان من قيام النبي صلى الله عليه وسلم بتبشيريه
للناس بمجلا كما جاء في القرآن:

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفْرُكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا
بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ
نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَكُمْ
وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ

إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشَدَّهُ وَأَوْفُوا السَّكِيلَ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ
فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ
بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ
وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وهذه دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم كما
وردت في الحديث النبوي الشريف عن عبادة بن الصامت قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا مَعْشَرَ النَّبِيِّينَ عَلَيَّ أَنْ
لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلَا تَسْرِقُوا ، وَلَا تَزْنُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ ، وَلَا تَأْتُوا بِيَهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ
وَلَا تَمْضُوا فِي مَعْرُوفٍ . فَمَنْ وَفَىٰ مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ
أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَمُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ . وَمَنْ
أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ عَفَا
عَنَّهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ »

وقد مضت القرون وتلك القواعد الصحيحة والمبادئ الثابتة
لم تتغير ، وكتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
لا تحريف فيه ولا تبديل ، وسنة الرسول الأمين وشريعته

الطاهرة قائمة وان أهمل المسامون وعصوا ربهم وانحرفوا
عن الصراط المستقيم . فكان من وراء أعمالهم وبسبب ضعفهم
وإهمالهم أن طغى فريق من رجال الأديان الأخرى ونزحوا
إلى بلاد الاسلام يدعون إلى دياناتهم ، وبدلوا كل مرتخص
وغال ، من رجال وأموال مما لا يلامون على نشاطهم لولا
انحرافهم عن الصراط القويم ، إذ تعرضوا للإسلام بالمطاعن
والمثالب . فلم يتركوا كلمة من الشتائم إلا أتوا بها . وتغالوا في
صوغ الكلم المنحرف ونمقوه بالادّعاءات والأباطيل .

(كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا
كَذِبًا) ، (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَأْبَى اللَّهُ
إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ)

ولم يكن العلماء والفقهاء ورجال الدين من أهل السلف
الصالح ليقفوا مكتوفي الأيدي ، أو جامدى الحركة ، بل كانت
غيرتهم على الدين تحفزهم إلى الدفاع عنه ، والدعوة إليه بصحيح
الأسانيد وقوى الحجج ، والكلم الطيب ، والبرهان الواضح

في أدب جمّ ، وتواضع عميق ، وجهاد في الحق متواصل ،
ونضال في نصرّة الدين على أهل الباطل .

ولما كان العصر العباسي وفي عهد خليفة المسامحة هارون
الرشيد وعصره حافل بالمفاخر فقد رغب في إرسال دعوتّه إلى
مملكة الروم ، وكان عاهاها قسطنطين يهتز بجبروته وقوّة
سلطانه في قومه ، ويسيطر بنفوذه على أبناء مملكته ، لهذا
كاف الرشيد كبير علماء زمانه ، وأبغ فصحاء أوانه . الحجّة
البالغة . والثقة الكاملة في أصول الدين أبي الربيع محمد بن الليث
لإعداد رسالة يبعث بها إلى ذلك الطاغية الجبار . وقد وفقه الله
بفضل قوّة يقينه ، وحسن إخلاصه ، ووضع رسالته التي زينت
بها جيد مؤلّف « كتاب الاسلام »

ولما رأيت أن حركة التبشير والمبشرين في المملكة المصرية
على الأخص ، وفي بلاد الشرق على وجه أعم ، قد تطورت
واندلع لهيبتها . واشتد أوارها ، واستفحل خطبها ، ورسالة ابن
الليث أبغ ما كتب لمحاجة المعتدين على الدين ، وإقناعهم بالحجّة
البالغة والبرهان السديد المتين ، وفيها بلاغ للناس ، وهداية
للضالين المضللين ، فتوجهت للتفكير في نشرها منفردة في
ثوبها القشيب ، وتقدمت بالرجاء إلى حضرة صاحب الفضيلة

شيخ الأزهر الشريف ، وكبير علماء المسلمين ، والحجة القائمة
في الدين مولانا الشيخ محمد مصطفى المراغي بكتابه الذي أنشره
بعد ، ليتفضل أحسن الله جزاءه وأجزله عطائه بمقدمة لتلك
الرسالة القيمة ، حتى إذا ما أقدمت على طبعها ، تكون موشاة
بدرر حكمه ، محلاة بلآلئ غزير علمه ، وقد جاد - حفظه الله ،
وكافأه على جميل صنعه بفضله جلّ وعلا ورضاه ، وتفضل
بكتابه الذي أنشره نخورا ، وأسأل الله أن يجعل عملي مقبولا
مشكورا .

اللهم أفض من فيض رحمتك على عبادك المسلمين وأجمع
كلماتهم على الحق المبين ، وأبعد عنهم نزغات الشيطان ، ووقفهم
إلى ما يرضيك يارب العالمين ، اللهم أيد بنصرك العاملين من
ولايتهم على رفع شأن دينهم ، وسدد خطى مليكنا المحبوب ،
خادم الاسلام ، والغيور على كرامته الملك « فاروق الأول » .

وأعد في عصره الميمون عهد الفاروق ابن الخطاب ، وألهمه
الحكمة والسداد والصواب انك أنت السميع العليم ، ووقفنا
جميعا لما يكسبنا عفوك ورحمتك ورضاك آمين .

أسعد لطفى حسن

كتاب الشارح

إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

شيخ الجامع الأزهر

مولاي حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ

محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر الشريف .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فاني أحمد الله وأثنى

على رسله وأنبيائه ، وأصلى وأسلم على خاتم النبيين . سيدنا محمد صلى

الله عليه وعليهم أجمعين . وأتقدم إلى سيدي ومولاي ، إذ عصاني

القلم ، وجف المداد ، وانكش القرطاس ، مذ حاولت تسطير

مقدمة لرسالة قدوة المحققين ، وأبلغ المرشدين ، وامام العاملين

وحجة المسلمين ، أبي الربيع محمد بن الليث التي بعث بها خليفة

المسلمين هرون الرشيد . إلى قسطنطين ملك الروم .

تلك الخريدة الفريدة ، والجوهرة الغالية القيمة الوحيدة ،

التي لا يليق بأصداقي أن توضع بجوار لآئها ، ولا بعباراتي أن

تعرض بين جواهرها ولا بعمادتي الفقيرة الضئيلة أن تذكر

بجانب عباراتها القوية الثمينة ، وحججها الثابتة المتينة ، وإذ

كانت هذه التحفة النادرة للدين دعاية ، وللضالين والمضللين

هداية ، وفضيلة مولاي شيخ العاملين ، وكبير جماعة الدفاع عن الدين ، وأقوى المحاجين بقوة الايمان وصدق اليقين . لإحباط مساعي المفسدين ، وابطال أعمال المبشرين . فها أنا وقفت ببابكم ، وسعيت إلى جنابكم ، لتتولوا الأمر ، وأنتم صنو الكاتب ، ورب القلم ، وحجة المسلمين ، وفضلكم وعلمكم أشهر من نار على علم ، أدعوكم باسم الله الرحمن الرحيم ، أن تنولوا ديباجة هذه الرسالة القويمة ، والدعاية العظيمة ، وقد طنى المبشرون ولا من يردعهم ، وتغلغلوا في الأوساط ولا من يمنعهم ، ولولا أن للدين رباً يحميه ، ويحفظه من خصومه وهاجيه ، لتمكنوا من غواية ضعاف النفوس والبسطاء ، وقد أمعنوا في محاولاتهم وحملاهم الهوجاء ، فنقبل رجائى وقد أخلصت النية لله ، لا أبغى إلا مرضاته ، وها أنا تقدمت للدفاع عن الدين مستعينا بأقوى حماته ، وأستاذ العاملين لرفعة شأنه وأكبر دعائه ولمثل هذا فليعمل العاملون (وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

والسلام عليكم ورحمة الله
المخلص
أسعد لطفى حسن

١٩٣٦ / ٢ / ٢٤

كتاب صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر الشريف

حضرة الأستاذ أسعد لطفى حسن .

والسلام عليكم ورحمة الله .

وبعد فقد اطلمت على كتابك «الاسلام» وأعجبت بجهودك

وكتبت لك الكلمة المرافقة ، وأسأل الله لك التوفيق

٢١ يونيو ١٩٣٦ م شيخ الجامع الأزهر

محمد مصطفى المراغى

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة شيخ الاسلام

والأزهر الشريف

اطلمت على كتاب الإسلام الذى ألفه حضرة الأستاذ أسعد

لطفى حسن فوجدته كتابا يوضح مناحى الدين ويأخذ بحظ

وافر من الأخلاق ويضرب بسهم غير منزور من الأدب

والاجتماع بمبارة سهلة وأسلوب يشوق النفس تتشربه الأفهام

وتشتهيه الأنفس الطيبة وقد أورد فيه من النصوص القرآنية

ما فيه بلاغ لقوم يعقلون .

وبعد أن أتى على ما أراد من هذه النواحي أورد رسالة من إنشاء أبي الربيع محمد بن الليث كتبها عن الخليفة الخامس هارون الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم لعهد يَدْعُوهُ وقومه فيها إلى الإسلام ، وهي في أسلوبها وجزالة ألفاظها ، وحسن تنسيقها ومسحة تأليفها تشبه ما كان يتعاطاه فحول الكتاب في ذلك العهد كسهل بن هارون وتلميذه الجاحظ فهي وما كتب في مشاوره المهدي لأهل بيته كأنما يمتحنان من قلوب واحد إذ منشئهما واحد ، استهأها بحمد الله بحامده والثناء بالآله . ثم انتقل إلى بيان ما يحمل من أمانة وجوب تبليغ الدين والإعذار إلى من لم تبلغه دعوة الإسلام وأنه يريد أن يحط عنه ثقل الأمانة بتبليغه الإسلام على الوجه الذي يدعو إلى النظر ، اقتداء برسول الله وامتثالاً لأمر الله ورجاء أن يكون ممن قصد بقوله تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا لِمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .

ثم أخذ يجول في ميادين الدعوة ويتنقل من برهان على التوحيد إلى برهان آخر ، ومن حجة إلى حجة باسطاً ذلك كل البسط بالأدلة القوية المتينة ، ثم تصدى لتوحيد الذات الإلهية

وَبُعْدَهَا مِنَ التَّرْكِيبِ وَتَعْرُضُ لِلْعَقِيدَةِ النَّصْرَانِيَّةِ بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ ،
وَأَنَّى مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا شَاءَ ، وَمَا مَتَدَّ بِهِ نَفْسُ الْقَلَمِ ، وَكَانَ مِنْ
أَوَاخِرِ مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ قَوْلُهُ :

وَكِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ نَذِيرُهُ بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِهِ وَمَقْدَمُهُ إِنْ
شَاءَ اللَّهُ مِنْ جِيُوشِهِ إِلَّا أَنْ تُؤَدَى الْجِزْيَةُ الَّتِي دَعَاكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
إِلَيْهَا ، وَحَدَاكَ وَمَنْ قَبْلَكَ عَلَيْهَا ، رَحْمَةً لِلضَّعِيفَاءِ الَّذِينَ لَا تَرْجَهُمْ
وَتُوجَعُ الْمَسَاكِينُ مِمَّا لَا تُتَوَجَّعُ مِنْهُ لَهُمْ ، مِنْ الْجَلَاءِ وَالسَّبَاءِ
وَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالتَّهْرِيقِ وَسَاوَةَ مِنْ قُلُوبِكُمْ وَأَثَرُهُ لِأَنْفُسِكُمْ وَاعْتِصَامًا
بِخَوَاصِكُمْ وَإِجْلَاءً لِعَوَامِكُمُ الضَّعِيفَاءِ الْفَتَرَاءِ الْمَسَاكِينِ لَا تَمْنَعُونَهُمْ
بِقُوَّةٍ وَلَا تَدْفَعُونَ عَنْهُمْ بِحِيلَةٍ وَلَا تَرَاقِبُونَ فِي الرَّحْمَةِ لَهُمْ
وَالنَّعْطَفَ عَلَيْهِمْ أَدَبَ الْمَسِيحِ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْلُهُ فِي الْكِتَابِ الْكَبِيرِ
(طُوبَى لِلَّذِينَ يَرْتَمُونَ النَّاسَ فَإِنَّ أَوْلَئِكَ أَصْفِيَاءُ اللَّهِ وَنُورُ
بَنِي آدَمَ)

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَنْفَعَنَا بِهَذَا الْكِتَابِ سَامِعَهُ وَقَارَأَهُ ، وَأَنْ
يَهْدِيَ بِهِ وَيُثَبِّتَ مَوَاقِفَهُ ، أَنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ

شَيْخُ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ

رسالة

الحجة البالغة أبي الربيع محمد بن الليث التي بعث بها الخليفة
العباسي هارون الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى قسطنطين عظيم
الروم . سلام على من اتبع الهدى ، فإنى أحمد الله الذى لا شريك
معه ، ولا ولد له ، ولا إله غيره ، الذى تعالى عن شبه المحدودين
بعظمته ، واحتجب دون المخلوقين بعزته ، فليست الأبصار
بدرّكه له ، ولا الأوهام بواقعة عليه ، انفراداً عن الأشياء أن
يشبهها ، وتعالى أن يشبهه شئ منهنها ، وهو الواحد القهار ، الذى
ارتفع عن مبالغ صفات القائلين ، ومذاهب لغات العالمين ،
وفكر الملائكة المقرّبين ، فليس كمثل شئ من شئ ، وله كل شئ
وهو على كل شئ قدير .

أما بعد ، فإن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه ، قال لنبيه
صلى الله عليه وسلم فيما أنزل من آيات الوحي إليه « أَدْعُ إِلَى
سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ » فرأى أمير المؤمنين من أحسن قوله وأفضل
فعله ، أن يكون إلى سبيل ربه داعياً ، وبرسوله صلى الله عليه
وسلم متأسياً ، واقوله « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » موافقاً ، وكنتم من
كتب الله المنزلة ، وآياته المفسرة ، خلقه الكثير بحيث رجا أمير
المؤمنين استماعك لموعظته ، وانتفاعك بمجادلته انتفاع بشر
كثير ، وخلق عظيم قد بُوت بأوزارهم مع وزرك ، واحتملت
من آثامهم إلى إثمك ، فأحب أن يدعوك ومن رجا أن ينتفع
بدعوته معك « إِلَى كَلِمَةٍ سَرَاءٍ يَنْبَغُهَا وَيَنْبَغُكُمْ إِلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ
وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ »
فإن توليتكم عن ذلك رغبة عنه ، أو تركتموه زهادة فيه ، فاشهدوا
بأننا مسلمون ، واستمعوا ما أمير المؤمنين واصف لكم ، ومحتاج به

إن شاء الله عليكم ، بقلوب شاهدة ، وآذان واعية ، ثم اتبعوا
أحسن ما تسمعون . ولا قوة إلا بالله .

فإن الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه وأقتص على
عباده « فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » إن الله
تبارك أسمه ، وتعالى جدّه ، وصَف فيما أنزل من آياته . وشرح من
بيناته ، الأُمَمَ الماضية ، والقُرُون الخالية ، والمَلَل المتفرقة ، الذين
يحملون مع الله آلهةً أُخرى لا بُرْهانَ لهم بها ، ولا حجة لهم
فيها فقال « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ
وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ
سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَكُفِيَ بِاللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يُسْتَنْكَفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ
وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ »

قالت الربُّ الذين يعبدون الملائكة ، وأهل الكتاب الذين

يقولون ثالثُ ثلاثة: بآيتِمَا آيةِ يا محمدُ ترعم أن الله إله واحد؟ فانزل
الله عزَّ وجلَّ في ذلك آيةً تشهدُ لها العقولُ ، وتؤمنُ بها
القلوبُ ، وتعرفُها الألبابُ ، فلا تستطيعُ لها رداً ، ولا تطيقُ
لها جحداً ، ذكرَ فيها اتصالَ خَلْقِهِ واتفاقَ صنْعِهِ ، ليوقنَ
الجاهلون من العرب ، والضالون من أهل الكتاب ، أن إله السماء
والأرض وما بينهما من الهواء والخلق ، واحدٌ لا شريكَ له ،
خالقُ لاشيء معه ، فقال « **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا
يَنْفَعُ النَّاسَ** » ففكَّرُ في تفسير هذه الآية من كلام الرَّبِّ
عزَّ وجلَّ ، وما أوضح فيها من بيان الخلق ، فإنه مامنٌ مُفكَّرٍ
ينظر فيما ذكر الله فيها مما بين السماء والأرض ، إلا رأى من
اتصال بعض ذلك ببعض ، مثل ما رأى في تدبيره نفسه ،
وعرف من اتصال خَلْقِهِ ، فيما بين ذَوَائِبِ شَتُونِ رَأْسِهِ إلى
أطراف أناملِ قَدَمِهِ ، وفي ذلك أوضحُ آيةٍ وأبينُ دلالةٍ ، على
أن الذي خلقه وصنعه إله واحد لا إله معه ، ولا من شيء ابتدعه
أولاً على مثال صنعه .

قد ترون بعينكم وتعلمون بمقولكم ، أن الله عز وجل خلق للأنام الأرض ، وجعلها موصولة بالخلق فليس يدخوها إلا لهم ، ولا يديها إلا معهم ، وجعل ذلك الخلق متصلا بالنبت ، لا يقوم إلا به ، ولا يصالح إلا عليه . وجعل ذلك النبت الذي جملة متاعا لكم ومعاشا لأنعامكم ، متصلا بالماء الذي ينزل من السماء بقدر معلوم ، لمعاش مقسوم ، فليس ينجم النبت إلا به . ولا يحيا إلا عنه . وجعل السحاب الذي يبسطه كيف يشاء ، متصلا بالريح المسخرة في جو السماء ، تيره من حيث لا تعلمون ، وتسوقه وأنتم تنظرون ، كما قال عز وجل « وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ » ووصل الرياح التي يصرّفها في جو السماء بما يؤثر في خلق الهواء من الأزمنة التي لا تثبت الهواجر إلا بثباتها ، ولا يزول عنه برّد إلا بزوالها ، ولولا ذلك لظل راكدا بالحرّ المميت ، أو مائلا بالبرد القاتل . ووصل الأزمنة التي جعلها متصرفة متلونة بمسير الشمس والقمر ، الدائنين لكم ، المختلفين بالليل والنهار عليكم ، وجعل مسيرهما الذي لا تعرفون عدد

السنين إلا به ، ولا مواقع الحساب إلا من قبله ، متصلًا بدوران
الفلك الذي فيه يَسْبَحَان ، وبه يَأْفُلَان . ووصل مسير الفلك
بالسما للناظرين سواء ، فهذا خَلَقُ الله عز وجل ، ما فيه تَبَيُّنٌ
ولا تَرَايِلٌ ولا تَفَاوُتٌ ، كما قال سبحانه وتعالى « مَا تَرَى فِي
خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ » ولو كان لله شريك ، أو معه ظهير
عليه ، يُمَسِّكُ منه ما يُرْسِلُ ، ويُرْسِلُ منه ما يُمَسِّكُ ، أو يوخر
شيئا من ذلك عن وقت زمانه ، أو يعجله قبل مجيء إِبَانِهِ ،
لَتَفَاوُتَ الخَلْقُ ، ولنبين الصنع ، ولفسدت السموات والأرض ،
ولذهب كل إله بما خَلَقَ ، كما قال عز وجل - وكذب المبطلين -
« بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ
وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُصِفُونَ »

والمعجب !! كيف يَصِفُ مخلوقُ رَبَّهُ ، أو يجعل معه إلهًا
غيره ، وهو يرى فيما ذكر الله من هذه الأشياء صنعة ظاهرة ،
وحكمة بالغة ، وتاليفًا متفقا ، وتدييرا متصلا ، من السماء والأرض
لا يقوم بعضه إلا ببعض ، مُتَجَلِّيًا بين يديه ، مائلا نُصَبَ عينيه ،
يناديه إلى صانعه ، وبدله على خالقه ، ويشهد له على وِخْدَانِيَّتِهِ

ويهديه إلى رُبُوبِيَّتِهِ « فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَيْشْرِكُونَ مَا
لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ » حَقًّا مَا كَرَّرَهُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ بِهِمْ ،
الضَّالُّونَ عَنِ أَنْفُسِهِمْ ، فِي خَلْقِ اللَّهِ النَّظَرَ ، وَلَا رَجَعُوا - كَمَا قَالَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ - الْفِكْرَ ، وَلَوْ أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ وَأَجْهَدُوا نَظْرَهُمْ ، فِيمَا
تَسْمَعُ آذَانُهُمْ وَتَرَى أَبْصَارُهُمْ ، مِنْ حَوَادِثِ حَالَاتِ الْخَلْقِ ،
وَعَجَائِبِ طَبَقَاتِ الصَّنْعِ ، لَوَجَدُوا فِي أَقْرَبِ مَا يَرَوْنَ بِأَعْيُنِهِمْ ،
مِنَ التَّأْلِيفِ لِتَرْكِيبِ خَلْقِهِمْ ، وَالْأَثْرِ فِي التَّدْيِيرِ بِصُنْعِهِمْ ،
مَا يَدُلُّهُمْ عَلَى تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ ، وَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى انْفِرَادِهِ بِخَلْقِهِمْ .
فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَعْيُنِهِمْ وَيَجِدُونَ بِقُلُوبِهِمْ ، أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ
صَنْعَةً بَعْدَ صَنْعَةٍ ، وَمُحَوَّلَةٌ طَبَقَةً عَنْ طَبَقَةٍ ، وَمَنْقُولَةٌ حَالًا إِلَى
حَالٍ ، سُلَالَةً مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ نُطْفَةٌ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ عَلَقَةٌ ، ثُمَّ مُضْغَةٌ ،
ثُمَّ عَظْمًا ، كَسَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَحْمًا ، وَنَفَخَ فِيهِ رُوحًا ، فَإِذَا هُوَ
خَلْقٌ آخَرٌ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ، الَّذِي خَلَقَ فِي قَرَارِ
مَكِينٍ مِنْ مَاءٍ قَلِيلٍ ضَعِيفٍ ذَلِيلٍ ، خَلْقًا صَوْرَهُ بِتَخْطِيطِ ،
وَقَدْرِهِ بِتَرْكِيبِ ، وَالْفَهْمِ بِأَجْزَاءِ مُتَفَقَّةٍ ، وَأَعْضَاءِ مُتَصِلَةٍ ، مِنْ
قَدَمٍ إِلَى سَاقٍ إِلَى نَخْدٍ إِلَى مَا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ مَفَاصِلِ مَا يُعْلَنُ أَوْ

عجائب ما يُبطن . ليعلم الجاهلون ويؤمن الجاحدون أن الذي صنع ذلك وخالقه ودبره وقدره وهياً ظاهره وباطنه ، إله واحد لا شريك معه . فلا يذهبن ذكر هذا صفحاً عنكم ، ولا تسقط حكمته جهلاً به عليكم ، وفكروا في آيات الرسل وبيّنات النذر ، فإن في ذلك فكراً للمُبصرين ، وبصراً للمعتبرين ، وذكري للعابدين ، والحمد لله رب العالمين .

وأمر المؤمنين واصف لكم ، ومقتص من ذلك - إن شاء الله - عليكم ما فيه شهادات واضحات ، وعلامات بينات ، ومبتدئ بذكر آيات نبينا صلى الله عليه وسلم ، فيما أنزل الله منها في الوحي إليه ، فانه ما أحد يقرع بآيات النبوة قلبه ، ويحصن بينات الهدى عقله ، إلا قادته حتى يؤمن بحمد صلى الله عليه وسلم ، لا يجد إلى إنكار ما جاء به من الحق سبيلاً . فأردت أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقة من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وحقه ، وما أنزل إليه من ربه عز وجل . فأحضرت كتاب أمير المؤمنين فهمك ، وألق إلى ما هو واصف - إن شاء الله - سمعك إن الله عز وجل اصطفى الإسلام لنفسه ، واختار له رسلاً

من خلقه، وابتعث كل رسول بلسان قومه، ليبين لهم ما يتبعون
 ويعلمهم ما يجهلون، من توحيد الرب وشرائع الحق « لئلا
 يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً
 حكيماً » فلم تزل رسل الله قائمة بأمره متواليه على حقه، في
 مواضي الدهور، وخوالي القرون، وطبقات الزمان، يصدق
 آخرهم بنبوته أولهم، ويصدق أولهم قول آخرهم. ومفاتيح
 دعوتهم واحدة لا تختلف، ومجامع ملتهم ملتمة لا تفرق،
 حتى تناهت الولاية والوراثة التي بنى عيسى عليه السلام عليها
 وبشر بها، إلى النبي الأمي الذي انتخبه الله لوجهه، واختاره
 بعلمه، فلم يزل ينقله بالآباء الأخير، والأمهات الطواهر، أمة
 فامة، وقرنا فقرنا، حتى استخرجه الله في خير أوان، وأفضل
 زمان، من أثبت محمداً رومات البرية أصلاً، وأعلى ذوائب
 نبعات العرب فرعا، وأطيب منابت أعياص قریش مغرساً،
 وأرفع ذرى مجد بنى هاشم سمسكا، محمد صلى الله عليه وسلم،
 خيرها عند الله وخلقته نفساً، على حين أوحشت الأرض من
 أهل الإسلام والإيمان، وامتلأت الآفاق من عبدة الأصنام

والأوثان، واشتعلت البدع في الدين، وأطبقت الظلم على الناس
أجمعين، وصار الحق رَسْمًا عَافِيًا، خَلَقًا بَالِيًا، ميتا وسط أموات،
ما إن يُحْسِنُ للهدي صوتًا يسمعونه، ولا للدين أثرًا يتبعونه، فلم
يزل صلى الله عليه وسلم قائمًا بأمر الله الذي أنزل إليه، يدعوهم إلى
توحيد الرب عز وجل، ويحذّرهم عقوبات الشرك، ويجادلهم
بنور البرهان، وآيات القرآن، وعلامات الإسلام، صابرًا على
الأذى محتملًا للمكروه، وقد ألهمه الله عز وجل أنه مُظَاهِرُ
دينه، ومُعِزُّ تمكينه، وعاصمه ومستخلفه في الأرض، فليس
يُثْنِيهِ رَبٌّ، ولا يُلْوِيهِ هَيْبٌ، ولا يَعْنِيهِ أذى؛ حتى إذا قهرت
اليّناتُ ألبابهم، وبهرت الآياتُ أبصارهم، وخصم نورُ الحقِّ
جُجَّتْهم، فلم تمتنع القلوب من المعرفة بدون صدقه، ولم تجد العقول
سبيلًا إلى دفع حقه، وهم على ذلك مكذبون بأفواههم،
وجاحدون بأقوالهم، كما قال الله عز وجل: العليم بما يسرون،
الخابر بما يعنون » فَأِنَّهُمْ لَا يُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ » بغيا وعداوة، وحسداً وجحاجة، افترض
الله عليه قتالهم، وأمره أن يُجَرِّدَ السيفَ لهم، وهم في عصاة

يَسِيرَةَ ، وَعِدَّةٌ قَلِيلَةٌ مُسْتَضْعَفِينَ مُسْتَذَلِّينَ ، يَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَهُمُ
العَرَبُ وَتَدَاعَى عَلَيْهِمُ الْأُمَمُ ، وَتَسْتَحْمِلُهُمُ الْحُرُوبُ ، فَأَوَاهِمُ فِي كَنَفِهِ
وَأَيَّدَهُمُ بِنَصْرِهِ ، وَأَنْذَرَهُمْ بِمَقْدَمَةِ مِنَ الرَّعْبِ ، وَمَشْغَلَةٌ مِنَ الْحَقِّ
وَجُنُودٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، حَتَّى هَزَمَ كَثِيرًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِقَلَّتِهِمْ ،
وَعَلَبَ قُوَّةَ الْجُنُودِ بَعْضَهُمْ إِنْجَازًا لَوَعْدِهِ ، وَتَصَدِيقًا لِقَوْلِهِ :
- وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ - فَأَحْسِنِ النَّظَرَ وَقَلِّبِ الْفِكْرَ فِي
حَالَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ قَائِمًا لِلَّهِ ، لِتَجِدَ
لِمَذَاهِبِ فِكْرِكَ وَتَصَارِيفِ نَظْرِكَ مُضْطَرَبًا وَاسِعًا ، وَمُعْتَمِدًا
نَافِعًا ، وَشُعُوبًا جَمَّةً ، كُلُّهَا خَيْرٌ يَدْعُوكَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَبَيَانٌ
يُنْكَشِفُ لَكَ عَنْ مَحْضِهِ ، وَأَخْبِرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا كُنْتَ قَائِلًا
لَوْلَمْ تَكُنِ الْبَعْثَةُ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَلَّغَتْكَ ، وَلَمْ تَكُنِ
الْأَنْبَاءُ بِأُمُورِهِ تَقَرَّرَتْ قَبْلَكَ ، ثُمَّ قَامَتِ الْحُجَّةُ بِالْإِجْتِمَاعِ
عِنْدَكَ ، وَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ الْمُخْتَلِفَةُ لَكَ : إِنَّهُ نَجْمٌ بَيْنَ
ظَهْرَانِي مِثْلَ هَذِهِ الضَّلَالَاتِ الْمُسْتَأْصَلَةِ ، وَالْجَمَاعَاتِ
الْمُسْتَأْمَدَةِ ، الَّتِي ذَكَرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ . وَجَاهِرِ
الْأُمَمِ وَصَنَادِيدِ الْمُلُوكِ ، نَاجِمٌ قَدْ نَصَبَ لَهَا وَغَرَى بِهَا يَجْهَلٌ

أحلامها ، ويكفر أسلافها ، ويفرق الألفها ، ويلعن آباها
ويضل أديانها ، وينادي بشهاب الحق بينها ، ويجهر بكلمة
الإخلاص إلى من تراخى عنها ، حتى حميت الرب ، وأنقت
المعجم ، وغضبت الملوكة ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه إليه
وحيداً فريداً ، لا يحفل بهم غضباً ، ولا يرهب عنتاً ، يقول الله
عز وجل : - يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ
لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ -
أكنت تقول فيما تجرى الأقاويل به وتقع الآراء عليه إلا أنه
أحد رجلين :

إما كاذبٌ مجهولٌ ما يفعل ويعمى عما يقول ، وقد دعا
الحتف إلى نفسه ، وأذن الله لقومه في قتله ، فليست الأيام
بمادة ، ولا الحال بثابتة له إلا ريثماً تستلجمه أسبابهم ، وينهض
به حاه أو هم غضباً لرئبهم ، وأنفة لدينهم ، وحمية لأصنامهم ، وحسداً
من عند أنفسهم .

وإما صادقٌ بصيرٌ بموضع قدمه ومرمى نبله ، قد تكفل
الله عز وجل بحفظه وصحبه بعزه ، وجعله في حرزِهِ وعصمه
من الخلق ، فليست الوحشة بواصلةٍ مع صحبة الله إليه ،

ولا الهيبةُ بدخلةٍ مع عصمة الله عليه، ولا سيوفُ الأعداء، بما ذون لها فيه. ثم إن آيتكم يا أهل الكتاب لو قيل لكم إن الرجل الذي يدعي العصمة وينتحل المنعة، قد نجمت الأمور به على ما قال، وسامت الحال له فيما ادعى، حتى نصب لعمارات العرب وجاعات الأمم يقاتل بمن طأوعه من خالفه، وعن تابعه من عانده، جاداً مشمراً، محتسباً واثقاً بوعود الله ونصره، لا تأخذه لومة لأثم في ربه، ولا يوجد لديه تميزة في دينه، ولا يلفته خذلان خاذل عن حقه، حتى أعز الله دينه وأظهر تمكينه، واتقادت الأهواء له، واجتمعت الفرق عليه. ألم يكن ذلك يزيد حقه يقيناً عندكم؟ ودعوته ثبوتاً فيكم؟ حتى تقول الجماعة من خدامكم، وأهل الحنكة من ذوى آرائكم: ما كان الرجل إذ كان وحيداً فريداً قليلاً ضعيفاً ذليلاً معروفاً بالعقل، منسوباً إلى الفضل، ليجتري أن يقول: إن الله عز وجل أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يعصمه من العرب جميعاً، ويمنعه من الأمم طراً، حتى يبلغ رسالات ربه، ويظهره على الدين كله، ويدخل الناس أفواجاً في دينه، إلا وهو على ثقة من أمره، ويقين من حاله.

فسبحان الله يا أهل الكتاب! ما أئين حق النبي صلى الله

عليه وسلم لمن طلبه ، وأسَّهله لمن قصَّده له ، واستعملوا في طلبه
ألبابكم ، وأزفَعُوا أَبصاركم تنظُرُوا بَعُونَ الله إليه ، وتَقْفُوا
إن شاء الله عليه ، فإنَّ علاماتِ نبوَّتِه وآيات رسالته ظاهرةٌ لا تخفى
على مَنْ طلبها ، حجةٌ لا يُحصَى عددها ، منها خواصٌ تعرفها العربُ
وعوامٌ لا تدفعها الأممُ : فأما الخواصُ المعروفةٌ لدينا ، المعلومَةُ
عندنا التي أخذتها الأبناء عن الآباء ، وقبيلها الأتباعُ عن
الأسلاف ، فأمر قد كثرت البيِّناتُ فيها ، وتداولت الشهادات
عليها ، وثبتت الحججُ بها ، وتراخت الأيامُ ببعضها ، حتى رأينا
عيَّنًا ، وقبلناه إيقانًا ، فهي أظهرُ فينا من الشمس ، وأبينُ لدينا
من النهار ، ولكن غيبت الأزمانُ عنكم أمرها ، ولم ينقل الآباءُ
اليك علمها ، وما لا يُدرَكُ إلا بالسمع موضوعُ الحجة عن العقل
فليس أميرُ المؤمنين بِمُحاجِّ اليك ، ولا قاصدُ اليك من قبيلها .
وأما الآياتُ العوامُ والدلالاتُ الظاهرة في آفاق الأرضين ، القاطعةُ
بِحُججِ المبطلين ، التي لا تنكرُ عقولُ الأممِ وجوبَ حقها ،
ولا تدفعُ ألبابُ الأعداءِ صحةَ أمرها ، فسَيُوجِّها أميرُ المؤمنين
مسالكَ أسماعكم ، ويُعيدُ بها حجةَ الله في أعناقكم من وجوهِ حجة

وأبواب كثيرة إن شاء الله: منها أنه لم تنزل الشياطين - فيما خلا
من قرات الرسل ونذرات النذر - تصمد إلى سماء الدنيا وتُنصت
للملأ الأعلى فتسترق السمع، وتحفظ العلم، وتنزل به إلى كل
أفك أئيم، يذنون أكاذيبهم على واضح صدقه، ويُنْفِقُونَ
أباطيلهم بحسب حقه، خلطا للباطل فيه، وتنويها للعباد عليه.
فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم، وأنزل آيات القرآن إليه،
حُرست السماء بالنجوم، ورُميت الشياطين بالشهب، وانقطعت
الأباطيل، واضمحلت الأكاذيب، وخلص الوحي، فبطلت
الكهانة، وضلت الشعارة، وكذبت الأحلام، وتحيرت الشياطين،
فكانت آية بيّنة، وعلامة واضحة، وحجة بالغة، تبهر قرائح
العقول، وتحرق حُجُب الغيوم، فلا يقوم مع ضيائها ظلمة، ولا
يثبت عند منحكمها شبهة، ولا يقيم معها في محمد صلى الله عليه وسلم
شك، لا من أصحابه خاصة، ولا ممن جاء بعده عامة، وإنما جعلها
الله عز وجل آية باقية في الغابرين، وحِراسة ثابتة من الشياطين،
لأن الله جعل نبينا صلى الله عليه وسلم آخر النبيين، فليس باعنا
بعده نبيا يكذب أقاويل الكهنة، ويقطع أخاير الجنة.

وستقول ، فيما يذهب إليه الظن ويقع عليه الرأي أنت
ومن عقل من أمتك وأهل ملتك : هذه آية حاسمة وحجة قاطعة
بينة قائمة ، مستعلية لأمرها مستغنية بنفسها ، لا تحتاج إلى
ما قبلها ، ولا يُشكل على ما بعدها إن أقرت العقول بما تقول
أوقامت البينة على ما تدعى ! بلى ! ثم تقول : وأنى لك بالبينة ؟
ولسنا نقر بكتابك ولا نؤمن برسولك ، ولا نقبل قولك فيما قد
سبقنا وإياك زمانه ، وحجبت العيوب عنا وعنك عامه ؟ فأرجع
إليكم إن قلتم ذلك ، فان وجدان القضاة قبل طلب البينات .
وليس يجعل أمير المؤمنين فيما ينازعك ويحاجك فيه
حكما غير عقلك ، ولا قاضيا سوى نفسك ، ولكنه يذكر الله
الذي إليه معادك وعليه حسابك ، لما جعلت التفهم لمسألته من
بالك وركبت حدودها في جوابك ، عادلا بالتمسك قاضيا بالحق
قائلا بالصدق ولو على نفسك ، ناظرا بالأثرة لدينك ، فلقد وفق
الله لك آية وأهدى إليك بينة ، لا تستطيع دفعها لحجبها عن عقلك ،
ولا حجابا لنورها دون بصرك ، فلا تدفع الآية بقولك والبينة
بلسانك ، جحداً يقطع وصول الحجج إليك ، ويد تعلق

أبوابَ الفهمِ عنك . فان اللسانَ لك مُداوِلٌ حيث شئتَ ومنقادٌ
تُصرفه فيما هَوَيْتَ ، ولكن انصب نفسك للفهمِ وأنت
شهِيد . وأردِ الحقَّ وقبوله فيما تريد . فاذا تصوَّرتَ البيِّناتِ
مجسِّدَةً في قلبك ، وتبيَّنتَ الحُججَ ممثلةً لنظرك ، قد أضاء
صوابُها لك وقرَّعَ حقُّها قلبك ، فاجعل القولَ بها شعاراً للسانِ
به متصلاً ، وأفهمِ المسئلةَ فهَمَّك اللهُ الحقَّ وجنَّبك الجحدَ .

ما تقول أنت ومن قبلك في رجلٍ كان يتيماً ضعيفاً أجيلاً
سأهياً لاهياً عائلاً خاملاً ، لم يتل كتاباً ، ولم يتعلم خطاً ، ولم يكُ
في محمِّلةٍ علم ، ولا إرثٍ مُلك ، ولا معدنٍ أدب ، ولا بيت
نبوّه ، فتراقت الأيامُ به ، واتصلتِ الحالُ بأمره ، حتى خرج
إلى العربِ عامةً والقبائلِ كافةً ، وحيداً طريداً شريداً ، مخذولاً
مجهولاً ، محفوّاً مرعباً بالعقوقِ لأهنتهم ، مقذوفاً بالكذبِ على
أصنامهم ، مذسوباً إلى الهجرِ لأديانهم ، وهم مجمعون على دَعْوَةِ
العصبيةِ وحميةِ الجاهليةِ ، متعادون متباغون ، مختلفةٌ أهواؤهم ،
متفرقةٌ أملاؤهم ، يتساقفون الدماءَ ، ويتناوحن النساءَ ،
ويستحجون الحرمَ ، لا تمنعهم ألفةٌ ، ولا تعصمهم دَعْوَةٌ ، ولا
يُحجزهم برٌّ ، فأأف قلوبها وجمع شئتيها ، حتى تناصرتِ التلويحُ

وتواصلت النفوس ، وترافدت الأيدي ، ثم اجتمعت الكلمة ،
واتفقت الأفئدة ، حتى صار غاية الملتقى رحالهم ، ونهاية المنتجع
أسفارهم ، وصاروا له حزبا متفقين ، وجندا مُطيعين ، بلا دُنْيا
بسطها لهم ، ولا أموال أفاضها بينهم ، ولا سلطان له عليهم ،
ولا مُلك سلف لأبائهم فيهم ، ولا نباهة كانت له بين ظُبرائهم ؟؟
أتقول إنه ما قال ذلك كنه الإبوحي عظيم ، وتنزيل
كريم ، وحكمة بالغة ! فان قلت ذلك فقد أقررت أن محمداً
صلى الله عليه وسلم رسولٌ . وتركت ما كنت تقولُ إنه لم
يدركه ولم يبلغه إلا بعقل سديد ، ونظر بعيد ، ورفق لطيف ،
ورأى وثيق استنبى به عقول الرجال ، واستمال إليه أفئدة العوام ،
فان قائم ذلك فأنا سائلكم بالهكم الذى تعبدون ، ودينكم الذى
تنتحلون ، لما صدقتم أنفسكم وتجنبتهم الهوى عنكم : أتؤمن
قلوبكم وتقرُّءت أولسكم ، ويحتمل نظركم ، أن محمداً صلى الله
عليه وسلم الذى وصفتموه بكال العقل ، وبيان الفضل ، ورفق
التدبير ، كان يقول لرجال العرب ، وجماعات الأمم ، ودُهاة
قريش : إن من آيات نبوتى ، ودلالات رسالتى ، وعلامات

زمانى ، أن الشياطين تُزَيِّى بنجوم السماء ، ولم تك تُزَيِّى بها فيما
خَلا ، ثم يجعل ذلك كتاباً يُقرأ ، وقرآناً يُتلى ، وهو كاذب فيما
تَلا ، ومُبتطلٌ فيما ادَّعى ، إبطالا تدركه عيون الناظرين ،
وكذبا يظهر لجميع العالمين ! سبحان الله ! أرايتم أن لو كان فيما
قال من الكاذبين ، وعلى ما ادعى من الآثمين ، ثم حاول إبعاد
القلوب ، وإنغال الصدور ، وإنفار النفوس ، وتفريق الجوع ،
أكان يزيد على ذلك !

فيا أهل الكتاب ! لا يحملنكم الإنفُ لدينكم على اللعب
بتوحيدكم ! فلعمرُ الله لئن تداركنتم أنفسكم وناصرتم نظركم
لتعلمن أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو حاول الكذب ، أوران
الإفك لما كان يترك جميع الأرض ، وما يغيب عن بعض
الخلق ويظهر لبعض ، ويقصد للسماء المتصلة بالبصر ، البارزة
للنظر التي لاتخفى على بشر ، ولا تغيب عن أحد ، فيدعى فيها
كذبا ظاهرا ، وإفكا بارزا مكشوفاً ، لا يبقى صغير ولا كبير
ولا ذكر ولا أنثى إلا عرف أنه إفك وزور ، وكذب وغرور
ولاسيما إذا كان يُلقى ذلك إلى أقوام أكثرهم أعراب ، ليس
بينهم وبين السماء حجابٌ ، إنما يُراعون الكواكب

ويتفقدون النجوم ، فأبعدُ عهدِ آخِرِهِمَ بها تفقدهُ لها ونظاره
إيها ساعةً أو ساعتين ، أو ليلةً أو ليلتين .

لَمَمَرُ اللَّهِ لَوْ عَثَرَتِ الْعَرَبُ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عَلَى كَذِبٍ ، لَكَانَ أَوَّلَ مَنْ يُؤَاثِبُهُ بِهِ وَيُجَادِلُهُ فِيهِ أَعْدَاؤُهُ مِنْ
قَرِيشٍ عَامَةً ، وَحُسَّادُهُ مِنْ جَبْرِيَّتِهِ خَاصَّةً ، وَنَظَارَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ
بَيْتِهِ دِينِيَّةً ، الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَعْبِرُونَهُ أَكْلَ طَرِيقٍ ، وَيَقْعَدُونَ لَهُ
عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ ، وَيَتَسَاءَلُونَ مِنْ أَمْرِهِ عَنِ كُلِّ ذِي حَادِثٍ
فَيَتَعَلَّمُونَ بِالْحُرُوفِ الْمُشْكِلَةِ ، وَالآيَاتِ الْمُشْتَبِهَةِ ، جَدَلًا
وَخُصُومَةً بِهَا ، وَطَعْنًا وَإِحَادًا وَمَنَازَعَةً فِيهَا ، حَتَّى لَقَدْ وَصَفَهُمُ
اللَّهُ بِفَعْلِهِمْ ، وَأَخْبَرَ عَنِ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ « بَلَّ
هُمُ قَوْمٌ خَصِيْمُونَ » وَمَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَقُولَ ذَلِكَ
وَلَا لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَهُ عَلَى اللَّهِ فِي أَمْرِهِمْ ، إِلَّا عَنِ خُصُومَةٍ شَدِيدَةٍ ،
وَمَنَازَعَةٍ بَلِيغَةٍ ، وَمَجَادَلَةٍ مَعْرُوفَةٍ ، فَأَحْسَنِ النَّظَرَ لِنَفْسِكَ ،
وَلَا تَهْلِكَنَّ شَفَقَةً عَلَى مُلْكِكَ .

فَأَيُّمُ اللَّهِ أَنْ قُلْتَ إِنْ النُّجُومُ شَيْءٌ كَانَتْ الْعَرَبُ تَرَاهُ
بِعْيُونِهَا وَتَعْرِفُهُ بِقُلُوبِهَا ، فَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ

عارف بها غير جاهل لها ، ايقول فيها لإحقا ، وينتحل فيها
إلصادقا ، لقد ثبتت فروع كلامك فيها على اسه ، ووصلت
آخر قولك له بأوله ثبوتا على ما ذكرت من عقده ولزوما لما
فرطت من نظره ، ولكنك لا تجدم مع الإقرار بذلك بدءا من
التصديق برسالته ، ولا مذهبا عن الايمان بنبوته .

ولئن زعمت أنه ادعى أمر النجوم كذبا وانتحلها باطلا ،
عارفا كان بها أم جاهلا ، لقد نسبته من الخطأ الذي لا يعمى عن
بصره إلى ما يخطئ فيه بشره . فأكذبت نفسك ، وتركت
قولك : إنه لم يكن التأليف لقلوب العرب واجمع لشتيت
القبائل ، إلا برأى شديد ، وعقل أصيل ، ورفق بالغ ، إلى
أحد أمرين لا تجدم لكلامك وجهها تذهب اليه غيرهما ،
ولا تحملا تضعه عليه سواهما ، إما أن تقول : إنه ألف قلوب
العرب ، وفرق جموع الأمم بتنزيل الوحي ، فتؤمن أنه نبي .
وإما أن تقول : فعل ذلك بجهل . وهذا قول لا يقبل ! كيف
يصفه أحد من الجاحدين به ، المكذبين له بعباوة ، أو يرمونه
بجهالة ، وهم يجوزون به حدود الأنبياء ، ويرفعونه فوق أمور
العلماء ، ويتخطون به مراتب الحكماء ، ومنازل الناس ، تكثيراً

لعمامه ، وتسديداً لعقله ، وتثبيتاً لفضله ، فيما لا يقدر الخلق عليه ولا تهتدى الألسن إليه ، حتى لقد نَحَلوه فعلَ الربِّ الذي لا يقدر عليه الخلق في وجوه كثيرة وأنحاء حجة ، من ذلك أنه إذا قالت البقايا من أمتنا : كان محمد صلى الله عليه وسلم يُخبرنا بالغيوب قبل ظهورها ، ويصِفُ الأمورَ قبل حُلُولها ، ويتجاوز (ما يكون) في زمانه من ذلك إلى ما يكون في زماننا غيباً ، أطلعه الله عزَّ وجلَّ عليه ، أضافوا ذلك عماء إليه ، فقالوا : كان أعلم الناس بمواقع النجوم ، وأبصرهم بمنازل البروج ، وأنظرهم في دقائق الحساب ، كيف ولم يكن الحجاز دارَ نجوم ولا محلَّ حساب ولا معدن أدب ! بل كيف والمنجم يقيس ويخطئ ، ويشك فيما يدعى ، وهو أخو صواب لاشك فيه ، وفارس صدق لا قياس معه !

ومن ذلك أنه إذا قالت العلماء من المساميين : كان نبينا صلى الله عليه وسلم (عليما) بباطن أخبار النبيين ، وخفيِّ قصص القرون الأوَّلين ، قالوا : كان أحياء الناس قلباً ، وأوسعهم سرباً ، وأسرعهم أخذاً ، يتتبع ذلك ويحبه ، وقد رواه وعلمه ، سبحان الله !! أولاً يعلمون أن المتعلم معروف المعلم ، متفاوت

الحالات ، متنقل الطبقات ، وأنه ما أحدهم يؤدّب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً ، إلا وله درجات في علمه ، وتارات في أخذه ، ومنازل في تعلمه ، تارة تلميذ وتارة مُقارب ، وأخرى حاذق ، وبكل ذلك موصوف من أهله ، معروف عند قومه ، ظاهر جبرته ، مستفيض في عشيرته ، لا يجهل أمره ، ولا يخفى ذكره ولا يُدسى عند مواضع الحاجة اليه ، وتارات الاحتجاج به عليه ، ولو كان ذلك معروفاً فيهم ، أو موجوداً لديهم ، أو ظاهراً عندهم لما أمره الله عزّ وجلّ أن يحتج عليهم ويقول في ذلك لهم : لَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ مُّجْرماً مِنْ قَبْلِهِ . لا أتلو قرآنا ، ولا أدعى وحياً ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ !!

وايم الله ! لو كانوا يعقلون أو ينظرون ، لعلموا أن معلمه على غير الملة التي يعرفون ، لأنه لهم من المخالفين ، وعليهم من الطاعنين ، يذكر فضائح قولهم ومعايب أمرهم ، ومخازي أسلافهم ، وعوائر أديانهم ، وأنه لو كان معلمه نصرانياً لدعاه إلى النصرانية ، أو يهودياً لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسياً لدعاه إلى المجوسية ، ولو لم يكن له معلم لما وقع على الحقيقة هداية من تلقاء نفسه ومعرفة بقوة عقله ، ولو كان معلمه الشيطان لما

دعاه إلى عبادة الرحمن ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر
الأصنام ، وصلة الأرحام ، والإصلاح في الأرض . كيف ! وكان
الشیطان یصد الناس عن سبيله ، ویزهدهم فی دینه ، وینہام
عن طاعته ، ویخرجهم من عبادته ، ویدخلهم فی مسأخطه ،
ویحملهم علی معاصیه ! إنه إذاً لرحیمٌ بهم ، ناظرٌ لهم ، شفیقٌ
عليهم . كأنه هو المبعوثٌ إليهم . كلا ! ما كان لیثقتهم من
حبائله ، ویخلصهم من مصایده ، ویخرجهم من ولايته
وطاعته وساطانته وخداعه وفتنته وحزبه ، إلى غیر ذلك من أمره
وما كان لینهى العرب أن یقتلوا أنفسهم ، ویتناوحوأحرمتهم ،
ویؤذوا ذریتهم ولا یقول لهم : لم تعبدون نَحیتَ الحجارة التي
جعلها الله لكم عاراً ، وتذرون عبادةَ الربّ الذي خلقكم أطواراً
هیئات ! لقد ذهبتُم بالشیطان الرجیم إلى صراط العزیز
الحکیم ، فقلتم قولاً تُنکره العقول ، وتدفعه القلوب ،
وتستوحش منه النفوس ، ألا تسمعون إلى قول الله عزّ وجلّ
« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا
أَرْحَامَكُمْ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ »

فما كان الشيطان ليرضى للعرب باللعنة والبكم والعمى والصمم
 فاتق الله ولا تكن من الجاحدين .
 ومنها أنه إذا قالت الفقهاء والحكماء : أنا محمد - صلى الله
 عليه وسلم - بكلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولم تقع القلوب على
 لُغته ، له رَوْتَقٌ كَحَبَابِ الْمَاءِ ، وَزَبْرَجٌ يَعْلَمُوهُ وَلَا يَعْلَمُونَ ،
 وَعَجَائِبٌ لَا تَبْلَى وَلَا تَفْنَى ، وَجِدَّةٌ لَا تَتَغَيَّرُ ، قالوا : كان محمد
 - صلى الله عليه وسلم - أَبْلَغَهُمْ قَوْلًا ، وَأَحْسَنَهُمْ وَصْفًا ،
 فَيَأْسُبِحَانِ اللَّهَ ، أَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ كَلَامًا لِلْعِبَادِ ، لَمَا
 أَقْرَبَتِ الْأَعْدَاءُ مِنْ (١) بِفَضْلِهِ ، وَلَا عَجَزَتِ الْقِبَائِلُ طُرًّا
 عَنْ مِثْلِهِ ، وَهُوَ يَنَادِيهِمْ فِي الْكِتَابِ ، وَيَتَحَدَّثُ فِي الْوَحْيِ ،
 بِصَوْتِ رَفِيعٍ ، وَنِدَاءِ سَمِيعٍ ، فَيَقُولُ « هَاتُوا سُورَةً مِنْ مِثْلِهِ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وَهُمْ فَرَسَانِ الْكَلَامِ ، وَإِخْوَانِ الْبَلَاغَةِ ،
 وَأَبْنَاءِ الْخُطْبِ ، وَأَهْلُ عِدَاوَةٍ لَهُ وَبَنِي عَلَيْهِ ، فَتَسْتَحْسِرُ
 الْأَبْصَارُ ، وَتَثْقُلُ الْأَسْمَاعُ وَتَتَعَقَّدُ الْأَلْسُنُ ، وَتَخْرَسُ الْخُطْبَاءُ ،
 وَتَعْجَزُ الْبَلْغَاءُ ، وَتَحَارُّ الشُّعْرَاءُ ، وَتَسْتَسْلِمُ الْكُفَّاءُ . ثُمَّ لَقَدْ

(١) يياض في الأصل بمقدار كلمة ولعله « المحركين » .

قايست البصراء بالكلام والعماء بالمنطق ، بين ما بأيدينا من
كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - وما جاء به من كلام الوحي ،
فاذا بينهما بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس يشبه له ولا مدان
ولا قريب ، وكذلك ينبغي لكلام الرب عز وجل أن يعلو
كلام الخلق ، والأل يشبه قول العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه
وجميع ما فيه ، لأن الله عز وجل لا يشبهه شيء .

من ذلك أنه إذا قال المسلمون : كان محمد صلى الله عليه
وسلم يرى ماضى أسلافنا وصلح آبائنا من العجائب العظام ،
والآيات الكبار ، ما هو جديد عندنا ، بين قبلنا فلم يعف أثره
ولم يدرس خبره ، ولم يتقادم عهده من شجرة نادها فأقبلت
ثم أمرها فرجعت ، ومن نحو بعير تظلم ، وذئب تكلم ،
وأشباه لذلك كثيرة ، ونظائر له عجيبة ، قالوا كان محمد - صلى الله
عليه وسلم - كاهنا حاذقا ، وساحرا ماهرا ، يشبه بالخيال ،
ويأخذ بالأبصار . كيف والجموع الكثيرة تصدروا عن الأطمعة
اليسيرة والمياه القليلة ، شباعا رواء ، أيكون ذلك والسحر
سواء ! والأخذ بالعيون لا يجرى في البطون ، ولو كانوا
ينظرون لدينهم وينصفون من أنفسهم ، لعلموا أن أمر الساحر

يدور على إفاكٍ وغرور وأن لمحمد - صلى الله عليه وسلم - آثاراً
قائمة ، ومنافع دائمة ، ثم لو كانت الكهانةُ والسحرُ يبلغان مثل
هذا من الأمر ، لبطلت آياتُ الكتب ، وعلامات الرسل ،
ولعلت الشبهةُ ، وسقطت الحجة ، وكذبت النبوة ، ولبطل
ما كان يفعله عيسى عليه السلام من إبرائه الأكمة والأبرص
وإحيائه الموتى ، فلا يكون التقليدُ للرجال مبلغَ علمك ،
ولا القبولُ لدعواهم بلا بيّنة .

ومن ذلك (أنه) إذا قالت البُصراء من أمتنا والعلماء بملتنا
كان النبي - صلى الله عليه وسلم - أمياً لا يُحسن الكتاب ،
وحافظاً لا ينسى القرآن ، وقلماً يجتمع العقل السديد والحفظ
السريع والنسيان البطيء ، قالوا : كان أخطأ الناس يوماً ، وأذكارهم
حفظاً ، كان يكتب بالنهار ، ويدرس بالليل ! !

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما
يصفون لما خفيت الصحف له ، ولا أكتُمت الدراسة عليه ،
ولما كان يُطيق سترها عن أهله ، ولا حجبها دون قومه .
وكيف تُؤمن القلوب وتقرُّ العقول أن رجلاً كبيراً حمل علماً كثيراً

وحكما جَاء ، من آيات متشابهة ، وسور متوالية ، وهو صاحب أسفار مترامية ، وأخو حرب دأمة لا يبطى نفظه ، ولا يسقط حفظه ، لولا أن الله عز وجل كفاه أن يُحرِّك به لسانه ، وضمن له جمعه وقراءته ، فقال عز وجل « سَنُقَرِّئك فَلَا تَنسَى » فلم يكن يسقط واوا ولا ألفا ، ولا ينسى كلمة ولا حرفا ؛ ما أبن هذا وأعجبه ! وأعجب منه المنكر له !!

وأما قولهم في الخط وإكثارهم في الكتاب ، فإن الله عز وجل جملة أميًّا ليثبت حجته ، ويصدق مقالته ، ولئلا يشك المبطلون في أمره ، ويقولون تعلمه من غيره ، فانه قد قال ذلك بطائن من مناقفة العرب وطوائف من كفر العجم ، فنطقت به الأعداء من جبرته ، والحسدة من عشيرته ، الذين بلغوا ما بلغوا من مجادلة حقه ، ومخاصمة ربه ، كفاة لمن قرب ، ووكلاء لمن بعد ، فيما لم تكن العرب واقعة عليه ، ولا الأمم مهتدية إليه ، لأنهم قد أحاطوا من علم خبره ، وخفي أثره ، بما كان عن غيرهم محتجبا ، ومن سوام مكتما ، وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلم من بشر أو يختلف إلى أحد ، لما خفي عنا ولسقط علينا .

وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد
 صغيراً ، أو يتعلم من بشرٍ كبيراً ، لَعَرَفَ ذلك أترابهُ المختلفون
 معه ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك مَنْ حوله من جيرته
 نصرة ولا مَنْ معه من أهل بيته دنية ، الذين عليهم يورد ومن
 قبلهم يُصدر ، ولما كان شائماً عند حشَمِ معلمه وجيرة موضعه
 الذين كان يختلف إليهم ، ويتأدب بين ظهرانيهم ، ولو كانوا
 بذلك عالمين ، أوفيه من أمره شاكِّين ، ثم بلغهم وتقرَّر
 قبَلهم أنه يقول : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَيْهِ ، فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ
 الْكِتَابِ عَلَيْهِ « وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ
 وَلَا تَخْطُطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأْرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » خلاصه منهم من
 كَفَرَ ، ولكفر به منهم من آمن ، ثم يدعى ذلك قرآنا ،
 وينتقله وحيا ! أما كان يرهَبُ أن ينتشرَ في الأقربين ،
 ويخرج إلى الأبعدين ، فنبطلُ حجَّتِهِ ، وتنتقضَ دعوتُهُ ،
 وتستطُ نبوتُهُ ، وَيَنْفِرَ أصحابُهُ الذين لم يصبروا معه في المجاهدةِ
 أنفسهم ، ويبدلوا عند الشدائدِ مُهْجَهُمْ ، وَيُنْفِقُوا فِيهِ عَلَى الْحَاجَةِ
 أموالهم ، مُنَاصِبِينَ لِأَهْلِ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ وَالْعَجَمِ وَكُلِّ الْأُمَمِ ،

وهم قليلون مُسْتَضَمِّفُونَ عَائِلُونَ جَائِعُونَ ، لا طَلْبًا لَدُنْيَا وَلَا طَمَعًا
فِي مَنَالٍ ، إِلَّا لَمَّا تَعَقَّبُوا مِنْ قَوْلِهِ ، وَعَرَفُوا مِنْ صَدَقِهِ ، وَلَوْلَا
أَنَّهُ أَخْبَرَهُمْ وَوَعَدَهُمْ أَن يَغَابَ كَسْرِي وَيَصِرَ لَهُمْ ، فَصَدَّقُوا
بِقَوْلِهِ ، وَأَمَّنُوا بِوَعْدِهِ ، حَتَّى قَوَّيْتُ الْبَصَائِرَ ، وَصَرَّمْتُ الْعِزَامَ ،
وَقَوَّيْتُ النِّيَّاتَ ، فَانْشَطَّتِ النَّفُوسُ ، وَشَجَعَتِ الْقُلُوبُ ، وَحَمَّتِ
الْأَبْدَانُ ، لَمَّا وَقَعَ لَهُمْ طَمَعٌ فِيهِ ، وَلَا ذَهَبَ لَهُمْ وَهْلٌ إِلَيْهِ ،
فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى يَقِينٍ لَا يَخْلُجُهُ شَكٌّ ، وَمَعْرِفَةٍ لَا يَخْلِطُهَا
رَيْبٌ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا قَالَ الْمَسَاهُونَ : مَا مِنْ فَعَالٍ مَحْمُودٍ ،
وَلَا مِقَالٍ مَعْرُوفٍ ، وَلَا خَلْقٍ كَرِيمٍ ، وَلَا أَدَبٍ فَاضِلٍ ، إِلَّا وَقَدْ
أَدَّبَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَنْزَلَهُ فِي
الْكِتَابِ إِلَيْهِ ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِالْمَكَارِمِ ، وَيَحْضُرُ عَلَى الْمَحَامِدِ ،
وَيَعْمَلُ بِالْمَحَاسِنِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مَدْخَلٌ لِشِبْهِهِ طَاعِنٍ ،
وَلَا مَعْلَقٌ لِحُجَّةِ قَائِلٍ ، وَلَا مَغْمَزٌ لِبَصِيرَةِ عَائِبٍ ، وَلَا مَوْضِعٌ
لِخُصُومَةِ بَشَرٍ ، فِي وَعْدٍ أَوْ عَهْدٍ أَوْ حَلٍّ أَوْ عَقْدٍ ، أَوْ مِقَالٍ أَوْ
فِعَالٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ .

قالوا : أمور حَمَلَ عليها نَفْسَهُ ودَعَاها إليها عَقْلَهُ ، وصَبَرَ عليها ، لِمَا أَمَلَ ورجا فيها .

سَبَّحَانَ اللهُ ؟ وما أَمَلَ بها وارتجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا فلقد أكَذَّبَهُمْ إِدْبَارُهُ عنها حيث أَمَكَّنَتْهُ القُدْرَةُ منها ، وأَعَثَرَتْهُ الحَالُ عليها . وإن قالوا : حَبَّ الأَثَرَةِ ، فقد جعل نَفْسَهُ للمَسَامِينِ أَسْوَةً في سِهَامِهِمْ وقِصَاصِهِمْ ، وحُدُودِهِمْ وحَقُوقِهِمْ ، وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : المُلْكُ ، فلقد كان أَشَدَّ الناسِ لِرَبِّهِ تَوَاضِعًا ، وأَعْظَمَهُمْ في جَنْبِهِ تَصَاعُغًا ، ما إن أكل متكئًا قِطًّا لإمْرَةٍ ، ثم قعد كهيئَةِ الفَرْعِ لها النَّادِمِ عليها ، فقال « اللهم اني عَبْدُكَ ورسولُكَ » وان قالوا : النِّعِيمُ ، فمن كان أَيْبَسَ مِنْهُ مَعَاشًا ، وَأَخْشَنَ رِيَاشًا ، وَأَغْلَظَ مَأْكَلا ، وكيف يذوق العَيْشَ أَوْ يَجِدُ لذِيذَ النِّعِيمِ ، من حَرَمَ السُّكْرَ والخَمْرَ ، ونَهَى عن الدِّيَابِجِ والقَزِّ ، وكان أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَائِمًا ، وَأَطْوَلَ لَيْلِهِ قَائِمًا ، فان قالوا : طَلَبَ الصَّوْتِ ورَغِبَ في الدِّينِ ، فذلك ما لم يَطْلُبْهُ أَحَدٌ في حَبِّ الصَّوْتِ وَالْتِمَاسِ الحَمْدِ لِمَا صَبَرَ مَغَاضِبَ قَوْمِهِ ، ومِلاوَمِ أَهْلِهِ ، وَشَتَائِمِ العَرَبِ ، وتوَعَدَ المَعْجَمِ ،

واستهزاء قريش ، يرمونه بالعقوق ويتذفونه بالجنون ، ويهتونه
بالسحر ، وليس يدري ما بهجُم به الأمر :

أم يقولون : طَلَبَ تَائِيلَ الْمَلِكِ لِقَوْمِهِ ، وَأَرَادَ تَوَطُّةَ
الْوَالِيَةِ لِأَقَارِبِهِ ! فَكَيْفَ يُطَلَبُ لِقَوْمِهِ مَا قَدْ زَهَدَ فِيهِ لِنَفْسِهِ ،
أَمْ كَيْفَ يُطَلَبُ لَهُمْ عِزُّ الْمَلِكِ وَقَدْ أَوْطَأَهُمُ الذَّلَامُ ثُمَّ الْقَتْلُ ؟ لَعَنَهُ
اللَّهُ أَنْ لَوْ أَرَادَ الْمَلِكُ لِأَقَارِبِهِ ، وَأَرَادَ طَلَبَ السَّلْطَانَ لِنَدْوَى رَجْمِهِ
لَوْ كَدَّ لَهُمْ عَقْدًا لَا يُحْلَثُ ، وَلَا بُرْمَ لَهُمْ أَمْرًا لَا يُنْقَضُ ، وَلَا أَيْلَ
لَهُمْ فِي عُنُقُوهُنَّ أَمْرَهُ مُلْكًا لَا يُخْرَجُ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَلَا يَبْرَحُ
أَبَدًا فِيهِمْ ، امْتِثَالًا لِصَنِيْعِكُمْ وَاحْتِدَاءً عَلَى مِثَالِكُمْ ، مَعَ أَقْوَابِلِ
حِجَّةٍ وَنِظَائِرِ كَثِيرَةٍ ، لَا يَسْتَقِيمُ لَهُمْ مَعَهَا أَنْ يَقُولُوا إِنْ مُحَمَّدًا
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَلَبَ الْعَرَبَ وَقَهَرَ الْعَجَمَ ، أَوْ قَالَ فِي أَمْرِ
السَّلْطَانَ وَالنَّجُومَ بِكَذِبِ .

فإن قلتُم إنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي قُوَّةِ عَتَلِهِ
وَيَبِيَانِ فَضْلِهِ . عَلَى مَا قُلْنَا وَقَلْتُمُ وَصَدَّقْنَا بِهِ نَحْنُ وَأَنْتُمْ ، وَلَكِنْ
هَفَّتِ الْعُلَمَاءُ وَزَلَّتِ الْحِكْمَاءُ وَأَخْطَأَتِ الْقُلُوبُ ، فَقَدْ يَعْلَمُ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - وَأَنْتُمْ بِذَلِكَ مِنَ الْعَالَمِينَ - أَنَّ خَطَأَ قُلُوبِ الْعُلَمَاءِ

نخطأ دائرة الرِّحَا ، ليست العلماء بمخطئةٍ إلا المرّة والنّتين كما
لا تخطى الرّحى إلا الحبّة والحبتين ، ومثل الذى نسبتم إلى
النبيّ صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل فى أنفسكم ،
كثيرٌ لا يُحصيه أحد ولا يباغعه عدد ، وأمير المؤمنين واصفٌ
بعضه لكم ، وموردٌ ما حضر كتابه إن شاء الله لكم . وأيم الله
على ذلك لو قالت العلماء من المسامين هبوا محمداً صلى الله عليه
وسلم كان فى أمر النجوم من المخطئين ، فكيف أخطأت
العرب وهفمت الأمم فى ترك مجادلته ورفض منازعته . وكيف
لم تقل العلماء من إفناؤه ^(١) والحكماء من حكمائهم ، تويضاً منهم
له وتعبيراً لمن آمن معه ! هذا أمرٌ من أوضح الأَكاذيب
وأبطل الأباطيل ، فلا يثبتُ مع قولهم إيمانٌ ، ولا يُقيم على
شرحهم إنسان . فان قلت : فلعل ذلك قد كان ، ولكنه درج
على طول الأزمان ، فكيف إذا صدقت العربُ بنبوته ، ولم
تكفر القبائلُ برسالته ، وهم يسمعون كذباً لا ينفع معه صدقٌ
كان قبله ، وباطلاً لا يعصم معه حقٌ حدّث بعده ؟ وإن قلت :

(١) كذا فى الأصل .

أدخلهم بالقهر وضَبَطَهم بالقتل وأكرههم بالسيف ، فما بال
القليل من المسلمين الذين قَهَرَم الكثير من المشركين ، ما بالهم
آمَنوا وصدَّقوا ، وسَبَرُوا وصَابَرُوا ، وَجَدُّوا وجاهدوا؟ كيف لم
تنكسر عزائمهم ، وتَهِنَ بصائرهم ، وَيَرْجِعُوا إلى دِينِهِمْ ،
ويهربُوا عن توحيدهم؟ كلا؟ لو كان الأمر على ما تقول
لأرفضَّ القومُ عن الرسول ، ولسكان صلي الله عليه وسلم أوَّلَ
ممتولٍ أو مخذول .

فأحسِنِ النظر فيما تذهب الأهواء برأيك إليه من آيات
النبي صلي الله عليه وسلم ، وإن جَمَحَت الدعوى بكم ، فقابل قد
مالت به الأهواء في الباطل ، فقال : إنه إلا يكن الأنبياء
ذَكَرَتِ النجومَ في صُحُفِها بينت الحِكماءَ منها ذَكَرًا في كُتُبِها ،
فجعلت المنقُضَ من الكواكب بين الأعوام ، دليلا على أمر
يحدُثُ تلك الأيام ، ولا ما هذا الاختلاق يلبُثُ به الجاهل
الفساق ، ما إن وضعت الحِكماءُ ذلك في الكتب إلا ليالي
ملئت السماء من الشهب .

وبالله لو ادعيتم غير ذلك فكان حَقًّا ، وكانت القالة منكم
صدقا ، لما كانت الدعوى بناقضة لآية النجوم حجة ،

ولا مدخلة على أحدٍ فيها شبهة ، لأن رمياً يقع قرط السنين من الكواكب لا يبطل رجماً قد ملأ السماء من كل جانب ؛ ثم لو لم تكن النجوم آية دامغة ، وحجة بالغة ، ودلالة قاهرة ، وعلامة باهرة ، وأمارة ظاهرة ، وشهادة قاطعة ، وبينة عادلة ، وداعية قاعة ، تبطل أطانين المشركين ، وتردع أقاويل المنافيين ، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليُعظم أمرها ، ولا يكرر في آي القرآن ذكرها ، رهبة لمناهضة أحياء العرب ، ومعرفةً بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وجدوا فيما كتب به اليك أمير المؤمنين من أمر النجوم ، واحتجّ به عليك من ذكر الرجوم ، موقعاً لظن ، أو معاملاً بطعن ، أو مغمزاً لقول ، لناصبوه إذاً بالمجادلة ، وكاشفوه بالمنازعة وجاهرؤوه بالقول الذي لا يستطيع له ردّاً ، ولا يطيق له جحداً .

ولكنها آية ملأت الأقطار كثرةً ، وحسرت الأبصار قوةً ، قد وجلت العقول ، وولّمت القلوب ، وملأت النفوس جزعاً ووجعاً وفرعاً شغلهم عن الأولاد ، وأذهلهم عن البلاد ، حتى بلغ أمير المؤمنين وتقرّر عند فقهاء المسلمين ، أن الله عز وجل ، لما ملأ السماء حرساً ، وأحدث لها رصداً ، وخلق

فيها شهياً، ذكرت العقلاء من العرب ، وقعات الله عز وجل
في الكتب ، بقوم نوح وعاد وثمود ، وأشباههم من مؤان
تلك الجنود ، الذين كانوا أشدَّ بطشاً ، وأكثر جمعاً ، فانقرجت
أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أنفسهم متائن عقدهم ،
وإن أهل الطائف لما فعلوا ذلك بأموالهم وأجمعوا فيه الخرج
إلى فقرائهم ، قام فيهم رجلٌ منهم ذوسنٍ وعقل فقال :
« يامعشر العرب ؟ لا تهلكوا أنفسكم قبل أن تهلكوا ،
ولا تخرجوا من أموالكم قبل أن تخرجوا ، تفقدوا مواقع
نجوم السماء ، وكواكب بدور الدجى ، فإن كانت النجوم التي
حدث الرميُّ بها ، والنجوم التي أخلتُم الأموال لها ، هي
البروج الشمس والقمر ومسال ^(١) الحيوان والشجر ، فهي
جوائح الاستئصال ، المتلفة الأفس والأموال ، وإن كانت
النجوم التي حدث القذف بها ، إنما هي نجومٌ خلقت اليوم ،
فليست المعرفة بواقعة على مبتدأها ولا الأبصارُ بلا حقة
متهاها ، فأمسكوا العقد عليكم والأموال ، فإنه أمر يحدث
في إحدى هذه الليال .

(١) كذا في الأصل .

فان قلت : وكيف وقعت الأمور في هذا الرجل كالعيان ،
وصارت المقالة كوعى الآذان ؟ أنباك أمير المؤمنين أن أوعية
الفقه من المسلمين ، الذين حملوا إلينا من الدين ، هم أدوا ذلك
إلينا ، وأبقوه نحرًا ... (١) علينا ، فما إن ينفك منهم مفتخر
يقول : أبونا الذي حبس على العرب الأموال والعقد ، فما إن
يدفع القول في ذلك منا أحد .

هيات . ما كانت العرب لتقر عند الفخار ، إلا بطول
هو أبين فيها من ضوء النهار ، فافهم ما كتب به أمير المؤمنين
في هذا اليك ، ولا يكن التعلل فيها بالشبهات أوثق مالدك ،
فانه قل حجة إلا وإلى جنبها شبهة تخيل للعقول ، وتعرض
للقلوب ، وتجلجل في الصدور ، فلا يثبت مع تخيلها ، ولا يقيم
لتعرضها بشر إلا من وزن الحق والباطل بميزان عادل ، لا يميل
إلى تفریط ، ولا ينحط في تقصير . وقد جعل الله عز وجل
العقول موازين للأموال . فزنا ما سمعتم من حجاج كلام الرب
عز وجل بما تنفون به الشبهة عن الحق ، ولا تميلوا اللسان
فتمسروا الميزان ، وسيعمل أمير المؤمنين إن شاء الله بما جاء

(١) يياض بالأصل بمقدار كلمة .

عن ذكر ما كتب به اليكم من أمر النجوم والرُّجُوم والشُّهُب
في القرآن والرُّواية والكتُب ، فألطفوا النظرَ في صحة معانيه
ونحوها الهوى عن شبهة ما وقعت فيه : قال عز وجل : « وَلَقَدْ
زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ » .
وقال : « وَاقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيْنَّاهَا لِلنَّاطِرِينَ
وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » . وقال : « إِنَّا زَيْنَّا
السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ
مَارِدٍ » . وإن شطب عن الحق شاطب ، أو ذهب إلى الباطل
ذاهب ، لا يعرف مذاهبَ كلام العرب ، ولا وجوهَ معاني
الكتب ، ولا تفسير آي القرآن ، فقال : إنما جعلت
الكواكبُ والمصابيح حفظًا من الله عز وجلّ للسماء ،
ورُّجُوما للشياطين من قبل أن يبعثَ الله محمدًا صلى الله
عليه وسلم بالدين .

فان في آيات القرآن ما فيه بيانٌ مما يُبطل دعواه التي
لاينةَ عليها ، ويكذبُ مقالته التي لا شُهودَ لها ، فقالت الجن
- فجعلَ الله تبارك وتعالى قولها وحيا - وبه منها صدقًا :

« وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلْتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا » .
 الأترون أنها كانت الجن لمست السماء فلم تجدها ملئت حرسا
 شديدا وشهبا ، وقعدت الشياطينُ منها مقاعد للسمع فلم تجد
 شهبا ولا رصداً ، أولاً يسمعون إلى ما يحقق ذلك ويسدده
 ويصدقه ويشهد له من قول الله تعالى : « هَلْ أَنْبَأُكُمْ عَلَى
 مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ
 وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ » مع قول الجن أيام حُرست السماء
 ورُميت الشياطينُ : « وَأَنَا لَا نَدْرِي أَسْرٌ أُرِيدَ بِيَمْ فِي
 الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » . فاذا عملتم في ذلك
 فكركم ، وقلبتم فيه نظركم ، فكتم على برهانٍ يقينٍ ونورٍ
 مستبين من استطاعة الجن للاستماع وقدرة الشياطين على
 الأستراق وإمكان السماء للقعود في تلك الحال الأولى ففكروا
 في الحال الأخرى حيث حرس الآيات أن تعارض باطلا
 بحق ومُنعت الشياطينُ أن تنزل بصدق ، وامتنعت السماء أن
 يصعد إليها شيطان ، فقال الله عز وجل « وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ
 الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِتْنَهُمْ عَنِ السَّمْعِ

لَمَعَزُولُونَ» . قَالَتِ الْجِنَّ : « وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ
لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ سَمْعًا بَارِئًا » إن في قولهم
الآن لأعظم نور وبيان . وأبين من ذلك لكم وأصح لمن عقل
إن شاء الله منكم إخبار الله عز وجل حين جعلت الكواكب
حفظاً من كل شيطان ماردي ، أنهم « لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ
الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ
وَاصِبٌ » مع إخباره في الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون
وينزلون ويستطيعون ويتلون على ملك سليمان ، فكن لهذا من
الحافظين ، وفيه من المفكرين .

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نفرت القبائل
من أعلام الشرك يجمعها ، وتداعت القادة من صنّاديد
الكفر باتباعها حذراً على غير لها أقبلت من الشام بصنوف
رغائب أموال عظام ، فكانت العير والنفير طائفتين : طائفة
ذات عُدّة كثيرة وشوكة شديدة ، وطائفة ذات أموال
رغيبية ورجال قليلة وفرصة ممكنة ، أخرج الله عز وجل نبيه
صلى الله عليه وسلم ووعدّه ومن معه من المسلمين إحداهما .

فكره المؤمنون جموع المشركين وأراد الله عز وجل أن يقطع
دابر الكافرين، وبشيء بذلك أركان الدين، فلما تراءت الفتان،
وتناوشت الفرسان، وتلاقى الناس، وقبل ذلك ما قال الله
عز وجل « سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّونَ الدُّبُرَ » قبض النبي صلى
الله عليه وسلم قبضة (من تراب) حثأها في وجوههم، فلم يتناه
دون مناخرهم وعيونهم فانصرفوا منهزمين بلا كثير قتال من
المسلمين، يا أهل الكتاب، فأيتها آية أعظم حجة وأوضح
بينة وأقهر غلبة من هذه التي لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها
لا نفصت الجموع من المسلمين كفاراً بها، أبشارة الله المسلمين
بإمداد الملائكة المقربين، وهزيمة نفير المشركين، التي نجمت
الأمور عليها، وتناهت الحال بهم إليها أم قبضة من تراب
يسير، ماملأ المناخر من عدد كثير.

فلئن قلتم: إن هذه آيات يبينات، وعلامات واضحات،
والكنا (لا) نقر لكم بها ولا نؤمن بقولكم فيها.

أفتؤمنون أن محمداً صلى الله عليه وسلم مع ما نسبتموه من
الفضل إليه كان يخلقها كذبا من تلقاء نفسه. ثم يدعيها وحياً

من عند ربه وهو لا يدري لعل الأمور (تقع) بخلاف ما يقول
فيظهر كذبه ، وَيَرْفُضُ تَبَعَهُ ، وإن ترعم أن أصحابه كانوا
كثيراً أقوياء ، نِشَاطًا جُلْدَاءَ ، فكان على معرفة بقوتهم وبقين
من غلبتهم . فقد قال الله عزَّ وجلَّ « وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
لَسَكَارُهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ
إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » . ولم يكن الرسول ولا غيره لِيُخْبِرَ
أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ثم يدعى ذلك
تنزيلاً من ربهم ، هذا لا تقبله الآراء . ولا تُقرُّ به الحكماء
ولا يحدِّه النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم بإشارته لهم
وإخباره ما أخبرهم من هزيمة الله عدوهم ، أن يشجع جُبنهم
ويُقرِّبَ ضعفهم ، فكيف إذا لم يبق لما كان يرى من كثرة
المشركين وقوتهم ، وضعف المساميين وقتلهم بظهور الأنبياء على
خلاف قوله ، وأن يَحْتَالَ الخبر^(١) على غير ظنه ، فيقع ظفر
يكذب نبوته ، ويقطع حجته ، ويكون له ما بعده . وكيف إذا
لم ينسب الأمر إلى نفسه ويُنحَى الخبر عن ربه ، ليكون

(١) مكذبا في الأصل .

الخطر أصغر والشأن أيسر إن جرت الأقدار بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره . ولكنّه أثبتّه في كتاب مسطور وَرَقٍ منشور ، فَمِلْ لِعَمْرِ اللَّهِ يَدُكَ عَلَى النُّبُوءَةِ الَّتِي كَانَ بِهَا وَائْتِقَا ، وَيَهْدِي إِلَى الْوَحْيِ الَّذِي كَانَ إِلَيْهِ سَاكِنًا .

وإن عَرَضَ لِنَظَرِكَ ، أَوْ وَقَعَ فِي خَلْدِكَ ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَوَّدَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْغَلْبَةَ وَأَجْرَاهُ عَلَى الْمَنَعَةِ ، فَكَانَ يَجْرِي عَلَى عَادَةٍ قَدْ عَرَفَهَا وَيَسْلُكُ جَادَةً قَدْ خَبَرَهَا ، فَلَقَدْ كَانَتْ الْمُهْزِيمَةُ فِي أَوَّلِ وَقْعَةٍ أَوْقَعَهَا اللَّهُ ، ثُمَّ لَقَدْ دَالَتْ الْحَرْبُ فِيمَا بَعْدُ سِجَالًا فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، تَارَةً عَلَيْهِ لَهُمْ وَأُخْرَى لَهُ عَلَيْهِمْ ، فَنَاصِحُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي نَظَرِكُمْ ، وَقَدَّبُوا فِيمَا يَقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَكَّرِكُمْ . فَلَمَعَمَرُ اللَّهُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِمُلُوكِ الْمُشْرِكِينَ : إِنَّ اللَّهَ هَزَمَكُمْ بِرَمِيَةٍ مِنْ تَرَابٍ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ عِنْدَهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَحْضِرْ كِتَابِي هَذَا فَهَمَّكَ ، وَاصْبِرْ لَهُ وَإِنْ خَصَمَكَ ، فَإِنَّ هَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَحُجَّةٌ بَلِيغَةٌ وَبَيِّنَةٌ عَجِيبَةٌ ، فِي غَلْبَةِ الْعَرَبِ .

وأعجب من هذه وألطف ، وأكثر منها وأعظم ، الآية
في غلبة العجم ، واستمع : أمر الله نبيه — صلى الله عليه وسلم —
أن يقول للمؤمنين — وكانوا كما قال الله عز وجل : قليلا
مستضعفين — إن قبائل العرب ستتحزب عليكم ، وإن الله
سيهزيمهم لكم ، وحيأ أنزله في الكتاب ، فقال : « جُنْدُ
مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ » فكان أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل هذا القول عليه بدهور طويلة
وسنين كثيرة ، محبوسين محصورين في حومة الموت وعسكر
الخوف وخندق القهر ، وذل الحصر سوادهم الأعمى وجلهم
الأعظم حُفَاةُ عُرَاةٍ عَالَةٌ ، إخوان دير ، وأصحاب وَبَرٍ ، لا قوَّةَ
بهم ، ولا منعة لهم ، ولا أسلحةَ عندهم ، ولا عدَّةَ معهم ، قد
أحدقت العربُ بمسكرهم ، وأحاطت القبائلُ بخندقهم ، وسالت
الأحزابُ تصديقا لحتم الله عليهم ، تريد أن تنزل أقدارهم
وشهريق دماءهم ، فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من
سوء الحال . وضيق المآل ، وشدة الكِظاظ . فان الله قد وصف
لهم حالهم ، وأذكرهم فعلهم . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم

ليصف لهم عن الله ما يبجلون ، ولا ليدكرهم من أمره ما لا يعرفون ، حذاراً أن تنكسر عزائمهم وتغيّر بصائرهم ، فتنهزم أقدستهم وتموت نجاتهم ، وتختلف كلمتهم ، فقال الله عز وجل « إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ وَمَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلَالًا شَدِيدًا » حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة « يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا » وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا . يقول الله تعالى : « وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا » فيدناهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم في الجبال ، وتقسيمهم بالقداح ، وأخذهم بالأيدي ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما يُنبئهم به من علم الغيوب ، ويشّرهم به من أمر الفتوح ، « إِنْ اللَّهُ سَيَنْصِرْكُمْ عَلَى جَمْعِ الرُّومِ وَيَغْلِبُ لَكُمْ جُنُودَ فَارِسَ فِيهِمْ لَكُمْ جُنُودُهُمْ وَيُورِثُكُمْ قِصُورَهُمْ وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَيَبْدُلُكُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِكُمْ أَمْنًا » وعداً صدّقه الكتاب ، وبشارة نطق بها الوحي ، فقال « وَعَدَّ اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي
ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي
لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا » فقال أقوامٌ وأناسٌ ارتابوا حين تضايقت
الحال ، وترزلت الأقدام ، وطارت القلوب ودارت العيون ،
وأشرف الموت « مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا » أَيْعِدُنَا
هَزِيمَةَ جَمُوعِ الْأَحْزَابِ ، وَفَتَحَ قُصُورِ الشَّامِ ، وَغَلَبَةَ جُنُودِ
كِسْرَى ، وَقَدْ سَالَتِ الْقَبَائِلُ عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَأَحْدَقَ
الموتُ بنا من كل مكان ، فبقينا في مَسْغَبَةٍ مِنْ الجوع ،
وَمَجْهَدَةٍ مِنَ الخوفِ ، وَصَنَكٍ مِنَ الحَالِ ، مَقْهُورِينَ مَقْمُوعِينَ ،
وقالت الخاصة من المؤمنين : حين عاينوا الجموعَ من المشركين
وذكروا ماخبرهم الله من تحزبهم عليهم ومسيرهم إليهم « هَذَا
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا
إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا » فبينما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مضايق
تلك الحال . وشدة ذلك الخصال . وعموم تلك البلايا الباهظة .
والأمور الفادحة . التي قد أخذَ بأنفاسهم غمُّها ، وبلغ مجهودهم

كربها رافعين إلى الله عز وجل أيديهم يقبلون في السماء أعينهم
إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة والجموع العظيمة
والأحزاب المقتدرة ريحاً من الأرض وجنوداً من السماء ،
فقطعت الأبنية ، وطيرت الأمتعة ، وسفت التراب في العيون
وقدفت الرئب في القلوب ، فلوأ مدبرين ، وخرجوا منهزمين
لا يلوى والد على ولد ، ولا مولود على أحد ، أمر صدق الله
فيه قواه ، وأنجز به وعده ، وهزم الأحزاب وحده ، وذَكَرَ
المؤمنين نعمته فيهم وعرفهم منته بهم فقال « اذْكُرُوا نِعْمَةَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا
لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ
وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ
الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا » وقال عز وجل : « وَرَدَّ اللَّهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » ما كان الله عز وجل ليقتصص
على المسلمين في أنفسهم ، إلا ما قدر أوه بأعينهم .

لولا أن هذا مالا ينكره عقلك ، ولا يدفعه نظرك ، لما

جادلتك بالكتاب ، ولا نازعتك بالتنزيل ، وإني لا ترك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي ، ما هو أعظم من هذا وأبين وأجل وأوضح ، ولكن ليس لي أن أحاجك من آيات القرآن إلا بما عليه شاهد من برهان ، ومخبر من بيان ، لا يستطيع عقلك ردَّه ، ولا قلبك جحدَّه ، وكيف ينسب لسانك ، أو يجترى قلبك أن يقول : إن محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يماون ، فاقصص عليهم من أمورهم ما لا يعرفون ! لا ! ما يسوغ لك ولا يجمل بك ، ولا يقبل منك أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه . كيف ، أما كان يخاف أن يكذبه أصحابه ، وتنقل أحواله ، وتنتقض أمورُه ، لعمر الله لو وصفت بهذا من لا يعرف بفضل ولا يذنب إلى عقل لما كان سائعا لك ولا جائزاً منك ، فكيف تصف به من يرفع عن الناس قدره ويفضل عليهم عقله ، وتقرُّ أنك لم ترفي الدنيا أحداً صنع (ما صنع) وبلغ ما بلغ : فأيتها آية فيما اقتصص عليك أمير المؤمنين أعظم أو بينة أعجب أما كان يتسلى على المؤمنين في الكتاب من اجتماع قبائل

الأحزاب بجنود عظيمة قبل اجتماعهم بسنين كثيرة؟ أم ما كان يُنادى به القرآن من الهزيمة لهم ، وينطق به الوحي من الفتح عليهم ، أم قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه « إن الله عز وجل يُؤمِّنُ خَوْفَكُمْ وَيُعِزُّكُمْ عَلَى الْأَمَمِ » وهو على تلك الحال ، ثم نَجَمَتِ الْأُمُورُ عَلَى مَا قَالَ ، أم عسكران مطابقان ، وجيشان متقابلان ، باتت الريح تحوس أحدهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها في عافية وغفلة حتى أصبحوا ، فأحسن النظرَ في أمرِكَ وَالتَّيَبُّتُ فِي دِينِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وأعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحقه وأن ليس يتقول شيئاً من تلقاء نفسه : أنه قال في غنْفُوانِ أمره « ان الله عزَّ وجلَّ سَيُظْهِرُ دِينِي عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » وجاء مع ذلك بأثره عن ربه في كتاب مخطوط وتنزيل محفوظ . فأى أمرٍ به لك أدلُّ أو أيهما عندك أعجب . إذ كنت بنبوته مصدقاً ، ولرسالته محققاً : الخبرُ الذي أخبره أم الفعلُ الذي صدَّقه ؟ لئن نظرت بعقلك ، وقلت في نفسك كيف تَرَقَّتْ إِلَى هَذَا نَيْتِهِ ، وارتفعت نحوه هِمَّتُهُ ، أم كيف

امتدت إليه فطنته ، وقويت عليه رويته ؟ بل كيف دعمته إليه
نفسه وشجعته عليه قلبه ، ودخل فيه طمعه وطاوعه فيه لسانه ،
وهو يدكر جنود كسرى ، وجموع الروم ، وملوك الترك ، وملوك
الشرك ، وقبول اليمن ، وصناديد الأمم . إن هذا لعجب ، ولا سيما
إذا لم يكن في إرث ملك قاهر ، ولا كنف عزيز غالب ، ولا معدن
علم سالف .

ولئن أعدت النظر وكررت ، فقلت : كيف وافق خبره
أثره ، وكيف صدق فمله قوله حتى غلب الشرق والغرب !
إن هذا لعجب ! وأعجب من هذا أمرٌ يدلُّك أمير المؤمنين
عليه ، وبهديك إن شاء الله إليه ، لو قلت لأهل مملكتك ومن
قبلك من أمتك : هل بلغكم أو تقرَّر قبلكم ، أنه كان في
الدهر الأول ، والعصر الخالي أحد مثل محمد - صلى الله عليه
وسلم - بدأت الأمورُ به مثل حاله من الوحدة والضئف والذلة
والقلَّة ، وصدَّرت الحالُ به كفعاله في الغلبة والمنعة ، والقهر
والظهور ، وغير ذلك ؟ لقالوا : لا .

ثم أنت لا تؤمن بمقالته ، ولا تُقرُّ برسالته ، إفاً لدينك ،

وَضَنَّا بِمَلِكِكَ وَطَمَعًا فِي قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا قَدْ نَعَاكَ اللَّهُ إِلَيْكَ ،
وَرَغْبَةً فِي صُبَابَةِ عَيْشٍ غَيْرِ بَاقِيَةٍ فِي يَدَيْكَ ، فِهَذَا عَجَبٌ .
وَأَعْجَبَ مِنْ هَذَا إِمْرُؤُ يَقْفُكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نَوْرِ حَقِّهِ ،
وَيُوضِحُ لَكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَيَانَ أَمْرِهِ ، أَصْبَحَتِ الْعَرَبُ طُرًّا وَالْأُمَمُ
جَمِيعًا فِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعٍ لَهُمْ وَلَا تَخْرُجُ
لِلْحَقِّ مِنْ بَيْنِهِمْ ، رَجُلٌ مُصَدِّقٌ بِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَجُلٌ
مُكَذِّبٌ بِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ ، وَرَجُلٌ شَاكٌّ فِيهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ .

فَأَمَّا الشَّاكُّ فَلَمَّا قِيلَ لَهُ أُخْرِجْتَ نَفْسَكَ مِنَ الْحَقِّ ،
وَأَبْرَأْتَهَا مِنَ الصَّوَابِ ، وَأَقْرَرْتَ عَلَيْهَا بِالْخَطَا ، لَقَوْلِكَ : لَا بَدَّ
أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ فِي التَّصْدِيقِ أَوِ التَّكْذِيبِ ، وَاسْتَعْلَى وَاحِدٍ
مِنْهُمَا اعْتَزَلَ عَنْهَا .

وَأَمَّا الْمُكَذِّبُ فَلَمَّا قِيلَ لَهُ : أَنْتَ مُنْكَرٌ وَالْمُنْكَرُ لَا يَسُ
بِمُدَّعٍ ، وَمَنْ لَمْ يَدَّعِ لَمْ يَلْزَمْهُ بَيِّنَةٌ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ حُجَّةٍ ، اتَّبِعْ
صَاحِبَهُ ، وَأَيُّمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، لَوْ سُئِلَ هَذَا الْمُدَّعَى عَنْ بَيِّنَتِهِ
وَكُشِفَ حُجَّتُهُ ، فَقِيلَ لَهُ : مَنْ أَيْنَ عَرَفَ قَلْبَكَ ، وَأَيَقِنْتُ
نَفْسَكَ إِقَانًا لَا يَخَالِجُهُ شَكٌّ ، وَمَعْرِفَةً لَا يَشُوِبُهَا رَيْبٌ

ولا ينازعها شبهة ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس برسول ،
لمآدرى ما يقول ، لأنه لا يستطيع أن يتقوّل على الرسل ، ولا
أن يتكذّب على الكتب ، فيقول قد أخبر الله فيها أنه لا يبعث
نبياً ، ولا يُنزل وحياً في كتاب مسطور بعد النوراة والانجيل
والزبور ، بل قد يجد أهل الكتاب في أقاويل رسالهم وأخبار
كتبهم ، أن الله تبارك وتعالى ينزل كتاباً جديداً أو كلاماً
حديثاً ، بعد خراب بيت المقدس في آخر الزمان ، ولم يُنزل
بعد ذلك كتاباً إلا القرآن .

وأما الرجل المصدّق بمحمد صلى الله عليه وسلم فقليل له :
أما أنت فتمدّ أذعيت . والمدعى يُسأل عن الحجة ويُقبل منه
البيّنة ، فما بينتُك ومن يشهد لك ؟ فقال : ألم تقولوا : إن
الحقّ لا يخرج من بيننا ، ولا بد أن يكون مع بعضنا ؟ قالوا
بلى ! قال : فأية بيّنة أحقّ وأعدل ، وأي شهود أزكى وأفضل
من شهادتكم بسقوط صاحبيّ وثبوت الحق من بعدهما في
يدّي ؟ قالوا : إن الأمر لكما تقول ، ولكن البيّنة أشقى
للصدور ، فأقام بيّنة من الكتاب ، وشهوداً من الوحي ،

وآياتٍ سوى ذلك عظامًا ، وبيّناتٍ عوامّ ، من كلامٍ لا يقدر
عليه الخلق ، وصدّقٍ لا يكون إلا من قبل الرب ، شبيهًا بما
أورده أمير المؤمنين عليكم ، وكتبَ به في صدر كتابه هذا
إليكم ، مما قد تشهد له قلوبُ الأمم ، ويُرَكِّيه فعالمُ العرب .
فلمّا أقام بيّنته ، وثبتت حجّته ، ووجّب حقه ، وقضى
به له ، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك ، وضاعت المقالة
لك ، أن تقول : إن الله لا يبعث نبيًا بعد محمد - صلى الله عليه
وسلم - ولا وحيا ينزل غير القرآن ، فأبطلت الكتب المحدثّة
وأكذبت الوثيقة ، ولم تترك وحيا غير القرآن ، ولم يجز للنصارى
أن تقول : لانيّ بعد عيسى عليه السلام ، ولا كتاب خاف
الانجيل ، وعن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا كل متنبّء
بعد نبينا كذاب ، فشاعت وجازت الحجة ، ووضح العذر .
وأما النصارى فيجدون في أواخر كتبهم ، وأقاويل رسلهم ،
أن الله عز وجل ، يبعث نبيًا حديثًا ، وينزل كتابًا جديدًا ،
فليس لهم أن يكذبوا نبينا - صلى الله عليه وسلم - ولا أن
يردّوا كتابًا .

فهؤلاء الثلاثة : أما الشاك فسقط ، وأما المنكر فبطل ،
وأما المصدِّق فنبت ثبوتاً ليس فيه مدخل شبهة ولا موضع
لحجة ، ولا معلق لمنازعة ، وذلك أن المنكر لوجوب حقه
والشاك في ثبوت صدقه لا يجدُ بُدًّا من أن يُنحى الصدق عن
الخلق ويخلى الدنيا من الحق ، وهذا قول المكذِبين بربهم
الشاكين في بعثهم فأحسن النظر في معانيه ينكشف لك
عما فيه إن شاء الله .

ومن أبين آياته وأدلِّ علاماته - صلى الله عليه وسلم -
ووسع له فيما صدر إليه : أنه لما أخبرت النصارى واليهود أنهم
لم يجدوا مُحمَّدًا - صلى الله عليه وسلم - في التوراة والانجيل
موصوفًا مكتوبًا ، تجمَّعت العلماء منهم ، وتدرست الكتبُ
فيما بينهم فلمَّا نظروا إلى اسمه وعائِنُوهُ بِنَمَتِهِ ، وكانوا يعرفونه
كما يعرفون أبناءهم ، ويستفتحون بذكره على من سواهم
(كفرت) طائفة حسدًا من عند أنفسها ، وحججًا من بعد
ما تبين لها ، وآمنت طائفة تصديقًا بكتابتها وخوفًا من ربِّها .
فلمرُّ الله لولا أن الذين آمنوا بحقه وصدَّقُوا بأمره ،

رأوا صفته عياناً ، وقَبَلُوا نِعته إيقاناً ، لما فارقوا أديانهم ، ولا جادلوا إخوانهم ، حتى وقفوا على اسمه ونسبه ، وصفته وعلامته وهم علماء بني إسرائيل ، وحملة الإنجيل : من أهل الكتاب الذين احتجَّ اللهُ عز وجل بهم على العرب ، فقال عز وجل : « أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » ولعمري اللهُ إنها آيةٌ عظيمةٌ ، وحجةٌ بليغةٌ . ذكرها اللهُ في كتابه ، وجعلها على العرب من بيناته . فقال لهم : « قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا » يقولون . وَعَدْنَا أَنْ يُرْسِلَ رَسُولًا ، فقد أرسله وحقَّقَ قوله ، وصدَّقَ وَعْدَهُ ، واحتجَّ النبي صلى اللهُ عليه وسلم بذلك وذكره ، ولم يكن النبي صلى اللهُ عليه وسلم ليُجادِلَ ويحتجَّ في أمرهم بكذبٍ وباطلٍ ، ولم يكن ليقول للنصارى واليهود ، فيما ذكر اللهُ من صدق الموعود . إنه في التوراة والإنجيل مكتوبٌ موجود . إلا وهو من ذلك على حقِّ يقينٍ ونورٍ مُستبينٍ ، وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل

بكذب . ويتقوّل عليهم الباطل مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعيّ به إيمان أحياء العرب . أما كان يعلم أنه إذا قال لهم إنه موجود في مثاني كتبهم ، وسُمّي على أفواه رُسُلهم فلم يجدوا خبره يقينا ، ولا وصفه مستبيناً أنهم سيذّبون عنه إداراً تزداد به العرب نفاراً . إلا أن يقولوا خطأ من علمه ، وهواء من خبره ، فكيف لم يخطِ إذاً في كتبهم حرفاً غيره ، ولم يخالف منها شيئاً سواه . سبحان الله ! لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم ، فأنتم إن تنكروا ما يقولون لكم - مما ليس لذى لبّ أن يأذن له أن يؤمن به - ولا أن ينبذ إليه سمعه ، يقولون: إن أنبياء الله ورسله المبعوثين بالرحمة إلى خلقه ، لطفّت النبوة منهم ووقعت الأخبار المنزلة عليهم على صائر الأمور ، وغوامض الخطوب . فسار الناس عليها ، وأشاروا لهم إلى طلبها فهي مكررة في مثاني كتبهم ، وبطون صحفهم ، وأقاويل رسالهم وتركوا من كلام الله النبأ العظيم ، والأمر الكبير ، والذكر الحكيم الذي ملك آفاق الأرضين ، واستفاض على جميع العالمين ،

لم يذكروه بخير يأترون به ، ولا بشرٍ ينتهون عنه ، كلا .
ما ترك الله على هذا خلقه ، ولا بهذا وصف تبارك وتعالى
نفسه ، إنه لأرحم الراحمين وأحكم الحاكمين .

ولئن رجعت إلى قلبك ، لتتوأن في نفسك : لعمر الله
لو كان هذا الأثر الذي طلع طلوع الشمس وأمتدّ أمتداد النهار
فبلغ مشارق الأرض ومغاربها وسهول الآفاق وخروتها ،
حقاً وصدقاً وعدلاً ، لبشّرت الكتبُ به وتنبأت الرسل عليه ،
ودعت النذر إليه ، تريئنا له وترغيباً فيه ، وأمرأ به ، ولو كان
ضلالةً وجهالةً وعميّةً ، لتقدّموا في التحذير منه ، والتزهيد
فيه ، والتثبيط عنه فيدعو ذلك إلى أن تنظروا إلى كتب الأنبياء
وأقويل الرسل ، فأيم الله لئن طلبت لتجدنّ ، ولئن أجتهدت
لتوفّقنّ ، وما الصواب بممنوع ، ولا الخيرُ بمحذور ، ولقد
كانت العلماء بالكتب والبصراء بالتأويل تجده ، ولكنها
كانت تكتّمه بتحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرف
تأويل الحكم إلى أشباهه حسداً من عند أنفسهم ، وبنياً بعد
ما بين لهم ، ثم لقد اقتديتم بهم وجرّيتم معهم وأخذتم عنهم

بلا حجة لكم ، ولا قوة معكم إلا الأقتداء بالآباء والأتباع
للآثار . فَأَتَقِيَ اللهُ فِي نَفْسِكَ ، وَأَتَمَّهِمُ الرِّجَالَ عَلَى دِينِكَ ،
وَلَا تَجْعَلِ النَّظَرَ إِلَى غَيْرِكَ مِنْ ذَوِي الشَّكِّ فِي الْقُلُوبِ ، وَالْفَسْخَ
فِي (١) ... وَالتَّهَمُّ فِي التَّمْطِيلِ الَّذِينَ لَعَلَّهُمْ يَعْزِضُ لَأَرْأَهُمْ وَيَقَعُ
فِي أَوْهَامِهِمْ أَنْ يَقُولُوا : فَاعْلَمْ مَا يَتَلَوُ عَلَيْكُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ
آيَاتِ الْقُرْآنِ ، وَيَقْرَعُ لَكُمْ مِنْ حُجَجِ الْوَحْيِ شَيْءٌ زَيْدٌ فِي
الْمَصَاحِفِ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهَذَا مَا لَا يَحْتَمِلُهُ عَقْلٌ
صَحِيحٌ وَلَا نَظْرٌ قَوِيٌّ ، وَذَلِكَ الشَّاكُّ فِي شَهَادَاتِ الرِّجَالِ ، مُتَّفَقَةٌ
مِنْ بِلْدَانٍ وَأَمْصَارٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَشُعُوبٍ وَقِبَائِلٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، لَيْسَ
يَدْعُوهُمْ إِلَى مَا شَهِدُوا دِينَ ، وَلَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ
دُنْيَا ، لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ بِمَا لَمْ تَدْرِكْهُ جَوَارِحُهُ وَتُحِيطُ بِهِ
حَوَاسِسُهُ ، لَا سِقَاطُهُ حُجَّةَ الْإِجْمَاعِ وَإِبْطَالُهُ شَهَادَةَ الْعَوَامِّ ،
وَأَتَّفَاقُ الْمُخْتَلِفِينَ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ ، فَهُوَ سَائِلُكُمْ عَنِ الْحُجَّةِ فِي
الْإِنْجِيلِ وَالْبَيْئَةِ عَلَى التَّوْرَةِ شَكًّا فِي الرَّبِّ وَتَكْذِيبًا بِالرَّسْلِ ،
فَمَا كُنْتَ قَائِلَهُ لَهُ أَوْ مُجِيبَهُ بِهِ فِي كِتَابِكُمْ ، فَأَجِبْهُ بِمِثْلِهِ فِي

(١) كذا في الأصل وظاهر أن كلمة بعد (في) سقطت من الناسخ سهواً .

كتابنا ، وإن كانت الأحوال منها غير معتدلة ولا مؤتلفة
ولا مرتفة ولا واحدة ، تعمدل حالهما . ويتفق أمرها ، من
كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشافه
المسيح به أصحابه باللسان ، إنما كان فعلا أثبت من بعده ،
ولم يكن الفعال موضوعا بعده ، وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا
إليكم شكًا فيه ، ولا يورده عليكم برية به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كُتِبَ الله عز وجل محفوظة ،
وأن حُجَجَه مخزونة ، لا يزداد فيها على تقادم عهد ، ولا ينقص منها
على تقارب دهر ، وأن ذلك ثبت في الإنجيل من بعد عيسى عليه
السلام ، وأنه قال لمن اجتمع إليه من الحواريين « بالوحي
أَكْتُمُكُمْ والأمثال أضرب لكم » فأمثاله المضروبة كلام .
وكلامه الرائع وحى ، ولكن مابال الشك يُنْفَى عن كتابكم .
بحجة الاجتماع عليه عندكم ، وهو على ما وصّف أمير المؤمنين
لكم ، وسيان في تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه . إما
ما قربا من عهده ومعاينة وحيه واجتماع على حفظه . هذا
حكيم مختلف .

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم
على حالات الأوقات التي تعرفون^(١) وفوتها^(١) بطبقات الرجال
الذين يتهمون .

فان قالوا : أما طبقات الرجال التابعين ، وحالات زمان
أمير المؤمنين فذلك ما لا يسوغ الأقاويل فيه ، ولا تدخل
الشبهة عليه ، لأن انتشار القرآن وأمداد الزمان ، وكثرة الحملة
لآياته فيهم ، والحفظة للسانهم منهم ، ولكن الدين الذي نزل به
القرآن ، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، وكيف
بوقوع تهمة أو دخول شبهة على أقوام (لبث) النبي صلى الله
عليه وسلم عشرين حجة فيهم يتلو كتاب الله عز وجل في كل
عام عليهم ، حتى حملوه في صدورهم ، وحفظوه في قلوبهم ،
وكرر في آذانهم مسموعا وأمر على أبصارهم مكتوبا ، وجري
على ألسنتهم متلوا ، وجمعه كثير منهم محفوظا ثم توارثوه
فيهم وتداولوه فيما بينهم حتى أدوه إلينا ، وأوفوا به عندنا من
مواضع متفاوتة وأصناف وأجناس متباينة . على كلمة واحدة !

(١) كذا في الأصل .

فان قالوا : اتَّفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنتم الحال
من الحمل عليه ، فليعلموا أن المؤمنين المخلصين ليسوا في الزيادة
متهمين ، وأن المنافقين الملحدين ليسوا على ذلك بقادرين ،
وكيف يقدر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من المؤمنين
بعد ما حَفِظَتْه قلوبهم ، ووَغَتْه أسمائهم . ثم تَكْتَمُ القدرةُ
لهم ونَسْتَتِرُ الزيادةُ منهم ! هذا ما لا يقدر عليه منافق ، ولا
يطيقه مُشْرِك ولا فاسق ، وأيم الله أن لو قَدَرَت اليهودُ على
الزيادة في الإنجيل لأفسدوا كتابكم وغيروا دينكم ، ولو جعل
الله المنافقين على الزيادة في كتابه قادرين لبدلوا ديننا وغيروا
حالنا ، ولو كانوا لذلك مُقَرِّنين وعلى ذلك مقتدرين ، لكان
الذي كَتَبَ به أمير المؤمنين إليكم ، وأورده من حجج الله
عَأيكم أولى ما تلقون ورأس ما تقترفون ، فلا تُلْمِقِينَ إلى ما قاله
(المضل) سمعك ولا تُنصِبِ الدهرَ إليه ذهنك ، فإنه اتَّخَذَ
الشكَّ في كتابنا ذريعةً إلى الإخلال بكتابك ، وسُلماً إلى
الشكِّ في دينك وعلَّةً في الطعن على ملَّتِكَ ، ولكن قل يا وليَّ
الشیطان : أنى وَقَعَ لك إيمان بأنك من ولد فلان ؟ أتقول :
شهدت الجيرةُ واجتمعت العشيرةُ واتَّفقت المختلفون فذهب

الشك وزال الريب ووقع الإيقان من غير العيان ؟ صدقت !
فإبال الشك فيما أجمعت العامة على القول به وأتفقت الجماعة
في الشهادة عليه من آيات الكتب وبينات الرسل ، وإن
ذهب بهذا عن أمره ، وباعده عن شبهه ، فتؤمن أنه من نطفة
خاق ، ومن رحم خرج ، فإن جحدوا بي ألا يؤمن بما
لا يرى فقل : أرأيت لو كنت سمياً أعمى ، أكنت تؤمن
بشيء مما في الدنيا : من سماء أو هواء أو بحر أو سبع أو أرض
أو جبل أو شبه ذلك مما لم يدركه العيان ولم يقبله إلا عن
الناس ؟ فإن قال نعم فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكفر
بالرب ، وما لدائه دواء غير الصلب ، فأثق الله إذ كنت إماماً
وقائداً لأهل ملكك لا تقدم إلى النار فتحمل أوزارهم مع وزرك
فإن من أبين آيات الوحي ، وأدلّ علامات النبي صلى الله
عليه وسلم أنه لا يتدع في الدين أمراً من تلقاء نفسه ، ولا
يتقدم في الأمور بين يدي ربه . والله أظهر فيما أنزل من
الكتاب أموراً كان يحسبها صلى الله عليه وسلم مستورة ، فقال
تأديباً له ، وإخباراً لمن آمن من بعده « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ

اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ
اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ
أَنْ تَخْشَاهُ» وقال : «عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ اللَّهُ كَرِي أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى
فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى
وَهُوَ يُخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَى كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ» وقال تعالى :
« وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئْنَاكَ لَقَدْ كَرِهْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا
لَاذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا
نَصِيرًا » وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس إلى البلد
الحرام حين سكنت القلوب إليها ، وَأَنْسَتِ النُّفُوسُ بِهَا :
« وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ
اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » وكانت القبلة التي صرفه الله إليها
وأمره بها عظيمة على المنافقين واقعة بخلاف الكافرين ،
كبيرة إلا على الذين هدى الله من المؤمنين ، فانهم قالوا :
إذا اختلفت القبلتان وافترت الجهتان ، كانت الطاعة فيهما

واحدة لا اختلاف فيها ولا افتراق عليها ، وكيف تختلف
الطاعة من رجلٍ بنى بأمر الله عز وجل ثم هدّم بوحى الله .
فان قلت : إن الله حوّله عن أفضل القبليتين وأقوم
الجهتين ، فلا سواء في الفضل البين والخير السرّ ، قبله سلط الله
عليها الكافرين ولم يمنعهما من الظالمين ، وقبله منعهما يجنود من
عنده ، وعصمهأ بغير ما حوّله من خلقه ولا حرمة يدعيها
أحدٌ ممن فيها ، فأرسل طيراً أبابيل ترمى الأعداء بحجارة من
سجّيل فجعلهم كعصفٍ ما كول . فان تقل : هذا خبرٌ نذكره
وقول لا نعرفه ، فبأي حديث بعد هذا تؤمن ؟ وتشهد الله عز
وجل أنه من قبله وأتمّ تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورة
الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فان قلت : إن محمداً صلى الله عليه وسلم خبرهم بما عاينوه
وأدركوا خلافة نقل : إنه أراد أن يفرّقهم عنه ويوحشهم منه ،
وأحب أن يرموه بالكذب ويقذفوه بالحق ، ويصموه بالجنون
ويظنون به الظنون ، كلا ! ما كان نبى ولا غير نبى ليجاهد
أقواما بخلاف ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم ، فيخبرهم

بخلاف ما شهدوا ، وتكذيب ما عاينوا ، فلا تكونن في هذا
من الممترين ، ولا بأمر الفيل من المكذبين .

فلعمركم لو كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما تلجده
أنت وقومك إليه لما قام معه رجلان ولا اختاف فيه سيفان ،
وان فيما صنع الله عز وجل بالفيل وأتباعه ، دلالة على قبة الله
وأنبياؤه ، فاتق الله ، فقد شرح أمير المؤمنين علامات النبي
صلى الله عليه وسلم وكشَّف الأغطية لك عن النور بآيات
الوحي فان مالت الأهواء بك ، وغلبت الأساقفة عليك ،
وحضرك الرؤساء الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى بلا حجة
عندهم ولا سلطانٍ أتاهم فقل : أنبئوني عما أجمعت عليه
النصرانية وذهبت إليه بهم المعاني من تشقيق الكلام
وتصريف الكتب : أحروفٌ تتعسفونها أم لغة تعرفونها ؟
فان قالوا : إنهم بغير لغة يتكلمون ، فهم إذا قوم يلعبون ، وإن
قالوا : إنهم يتكلمون بلغةٍ معروفة ومعاني معلومة . فقل : أخبروني
عن قولكم . أب وابن . أهما ما تعترف العقول من المنطق ويقع
في القلوب من المعنى أم لا . فان قالوا لا ، ليس ذلك بالذي
تذهب أوهام العباد إليه ، ولا بالذي تقع الحقائق في الآباء

والأبناء عليه ، إنما هو كقول الله عز وجل في التوراة لإسرائيل
(بكرى) لا يعنى ولادة الرحم ، وكقول المسيح عليه السلام
للحواريين (أنتم إخوتى) لا يعنى أخوة النسب ، فذاك
قول لا يجدون معه بدًّا من أن ينسبوا عيسى عليه السلام عبداً ،
وإن قالوا : بل هو ما تجرى به ألسن العباد ، ويقع في قلوب
الخلق من الولادة المعروفة والأبوة المعلومة ، فيخبرونا متى
كان الأب والدًا ، والابن مولوداً أقبل الولادة أم بعدها ؟ فإن
قالوا قبلها رجعوا عن القول الأوّل بتثبيت الأبوة . إلا أن
ذلك ليس بالشىء الذى تذهب إليه الأوهام ، ولا بالمعنى الذى
يقع في قلوب الأنام .

ولا بدّ إذا سقطت الولادة المعروفة وبطلت الأبوة
الموجودة ، أن يقولوا إن الأب والابن أسمان علقا على غير
معنى ، ونسبان أضيفا إلى غير حق ، فيقرّون أن عيسى عليه
السلام خلق مثلهم ، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحد منهم .
وإن قالوا : إنما كان الابن مولوداً والأب والدًا بعد
الولادة ، فقد أقرّوا بأن الابن حدّث مخلوق وعبد ربوب ،

لقولهم إنه لم يكن حتى وُلِدَ ، ولم يُولد حتى خُلِقَ . وقل لمن يقول الزور العظيم ، ويقذف بالافك المبين : أليس الأبُّ أباً على حياله ولم يزل ، والأبْنُ ابناً نُجِّلَ وروُحُ القدس كذلك ؟ فان قالوا نعم ، فقد أقرُّوا بأنهم ثلاثة متباينة ، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة ، وتركوا قولهم إنهم ثلاثة أصلهم واحد . وإن قالوا الأبُّ والأبْنُ وروح القدس واحد ، ولكنَّ بعضه أبٌ وبعضه ابنٌ وبعضه روح القدس ، فقد دخلوا في التحديد الذي هو عيب عندهم ، وقالوا في التبعض بما هو كفرٌ قبلَهُم ، وإن قالوا ليس مَبْعُضاً ، ولا مَجْزُأً ، ولا محدوداً ، ولا ثلاثة متباينين ، فإذاً هم قوم يلعبون ، يقولون الأبُّ ابنٌ ، والأبْنُ أبٌ ، والوالد مولود ، والمولود والد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، والقليل كثير ، والكثير قليل ، وهذا من آيين المحالِّ وأخلف المقال ، وليس من المنطق ما لا يوجد في لغة عرب ولا عجم ، ولا لسان أمة من الأمم ، وإنما أرسل الله عز وجل كل نبيٍّ بلسان قومه ليبيِّن لهم ، فيُضِلُّ الله الظالمين ، ولولا ذلك لما فهمت الأممُ مذاهبَ أقاويل الرسل ولا معاني

أحاديث الكتب ، فلا تُطع الذين ياعبون بأنفسهم ، ويتكلمون
بغير لغتهم ، ويقولون : الثلاثةُ واحدٌ ، والمواحد ثلاثة ، وهذا
محالٌ في مجارى المقال ، ومعانى الفعال .

لعمركم الله لئن أتهمت عقول الأساقفة على دينك ، وأهتَمَّت
بالنظر في توحيدك ، لتعلمن أن الواحد لا يكون ثلاثةً وأن
الثلاثة لا تكون واحداً ، إلا على وجه ماله ثانٍ يقول به ،
ولامنهُ مخرَجٌ تستريح إليه ، فألق نحوه سمعك ، وأنصت
إليه فهمك ، فان أمير المؤمنين واصفه لك ، وليس واقعاً إلا
على المخلوقين ، ولا لازماً غير المحدودين ، ولا داخلاً على رب
العالمين وهو أن يكون الشيء أصله واحد وأجزاؤه كثيرةً ،
من نحو الانسان ، وهو أصل يجمعه اسمٌ ، وله أجزاء تلزمها
أسماء ، فليس الجزء بالأصل ، ولا الأصلُ بالجزء ، ولكن الجزء
بعض الأصل ، فاذا أردتَ الجزء ، قلتَ يدُ الانسان ، وسمعتَ
الإنسان ، ولولا أنه محدود مخلوق مجزأً مبعَّض لما جاز هذا
القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه ، وكذلك الشمسُ : الأصلُ
واحد ، وهى شمس ، والأجزاء كثيرة وهو عينُ الشمس وضوء

الشمس وشُعاع الشمس ودقيقتها وغلبيظها وحرورها وأعلاها
وأسفلها وأشباه ذلك .

فلئن قلت : سمّيت كلّ جزء من الأجزاء على حياله
إنساناً ، وكلّ جزء من الشمس دون أصله شمسا ، ونسبت
فعل الأصل إلى بعض أجزائه ، وتركت أن تنسب الأصل
فاعلاً ببعض الأجزاء كما تقول بسط الإنسان بيده ، ومشى
برجله ، ونظر بعينه ، ثم ضربت ذلك لله عز وجلّ مثلاً ،
وجعلت الله له قياساً ، فقلت : الأصل واحد ، وهو الله عز
وجل ، والأجزاء كثيرة ، وهي أب وابن وروح القدس ، وكل
جزء منها إله على حياله وربّ دون غيره لم تجد بداً أن تلحق
اليد والعين والنفس بالأب والأبْن وروح القدس ، فتكثرت
آلهتك ، وتحدّد ربّك ، وتركت قولك إن الله ليس محدوداً
ولا مجزئاً ولا مبعّضاً إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء
فتقول المعنى واحد ، وهو الله عز وجل ، والأسماء أب وابن
ورُوح القدس ، فإن كنت تقول هذا وكنت إنما تعبد أسماء
فما تجد بداً من أن تعبد الأسماء كلّها وتقول إنها آلهة على

حيالها . حتى تقول بأسمِ ارحمني ، وبثانٍ اغفر لي فاتقوا الله
يا أهل الكتاب ، فان الله عز وجل ليس بأب ولا ابن ولا أسم
ولكن له الأسماء الحسنَى فادعوه بها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ
فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

فان أشارت الأساقفة إلى بعض الانسان باليد والرجل
وأشبهه ذلك ، وقالوا ليس إنساناً . فقل لا ، ولكنه للانسان .
وقل هو إنسان بكاله ، وكذلك إن أشاروا إلى بعض الشمس
فقالوا : أليس هذا الشمس طالعا ، فقل لا . ولكنه بعضها .
ولو كانت الأسماء التي تقع أبصاركم عليها وتشير أيديكم إليها من
الشمس والسماء والهواء شمساً وهواءً وسماءً لكانت الشمس
والهواء والسماء أكثر مما يبلغه الإحصاء . ولو قصدت بالاجابة
لمسالك هذه الأودية . لبطلت الحجج الداحضة وانقطعت
الأقوال المتناقضة ، وسل من قبلك من أساقف أمّتك
وثمّامة أهل مملكتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ويرفعونه
أن يكون عبداً . على أي شيء وقع اسمُ المسيح من عيسى .
على الروح أم الجسد أم على كليهما ؟ فان قالوا : وقع على الروح

نفسه . لأن الروح إلهٌ دون غيره . فقد أقروا بأن إلههم
يأكلُ ويشرب ، ويمشي ويركب . لأنهم يحدون ذلك من
فعل عيسى مبيِّناً قِبَلَهُم موصوفاً عندهم ، فان قالوا : وقع أسمُ
المسيح على الجسد بعينه ، فكان الجسدُ هو المسيحُ إذا دون
غيره ، والمسيحُ إذا مخلوقٌ عندهم ، والإله إنسانٌ إذا مثلهم ،
فلم يعبُدون المخلوقَ ويدعون من خَلَقه وبرَّاه ، وإن قالوا : وقع
الأسمُ على الروح والجسد جميعاً ، فلن يجدوا نخرجاً ولا بدءاً
ولا محيصاً إذا أوقعوا الأسمَ عليهما من أن يُضيفوا الأعمالَ
إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوق هو خَلَقَهُم ، وإن الروحَ
المخالقة قد ماتت قِبَلَهُم ، وذلك لما يجدون من ذكر موتِ
عيسى عليه السلام في الكُتُب عندهم ، وفي الانجيل الذي
قِبَلَهُم ، وسل مرنٌ قبلك عن الأب والأبن ، فقل أيهما أعظم
وأيهما أصغر ، فان قالوا : الأب أعظم والأبن أصغر ، فقد
جعلوهما متباينين ، وإن قالوا : هما واحدٌ وكلاهما عظيم ، وليس
الأب بأعظم من الأبن ولا الأبن بأصغر من الأب ، فقد
نقض حينئذ جوابهم ، وأكذب المسيحُ عليه السلام كلامهم

حيث يقول « لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَفَرِحْتُمْ حَيْثُ أَذْهَبْتُ إِلَى
إِلَهِي فَإِنَّ إِلَهِي أَعْظَمُ مِنِّي » فلم يقل أعظم مني ، إلا وهو مترد
بأنه أصغر منه ، وسلمهم عن قول المسيح « أنا أذهب إلى إلهي
وإلهكم » فقل : مَنْ هذا الإله الذي ذهب عيسى إليه صلى الله
عليه وسلم : إله في السماء متباين منه منقطع عنه ؟ فهما إذاً
اثنان متباينان ، أم إله كان به مُتَّصِلاً وكانا جميعاً واحداً ؟
فكيف إذاً يجوز له أن يقول إذاً أذهب إليه ! إلا أن يقولوا :
إن بعضه ذهب إلى بعض ! وهذا مما لا يجوز عندهم في صفة
الرب عز وجل .

وسئل مَنْ قَبْلَكَ : أَخْرَجَ الْمَسِيحُ مِنْ بطن أمه مريم
بكآله حتى كان البطن منه فارغاً ، وكان هو منه بكآله خارجاً ؟
فان قالوا : نعم ، فقد أنكسر قولهم إن الله بكل مكان ، وإن
قالوا : لم يخرج المسيح ولم يخل البطن ، فقد كذبوا إذاً في
قولهم : إنه قد خرج وأقرؤا أنه قد وُلِدَ ، فتعالى الله عما يصفون
وتنزّه عما يشركون ، وسألهم لم هبّط عيسى إلى بطن مريم ،
وتجسّد باللحم والدم ، فان قالوا : لِيَمْحَقَ الْخَطَايَا مِنَ الْأَرْضِ

وَيُرْبِطُ الشَّيْطَانَ عَنِ الْخَلْقِ ، فَقُلْ : كَيْفَ إِذَا لَمْ يَرْبِطْهُ عَنِ
نَفْسِهِ ! وَكَيْفَ جَلَابَاهُ مِنَ الْيَهُودِ بِصَابِهِ ، وَلِمَ سُلِّطَ عَلَى أَهْلِ
دِينِهِ يُدَبِّعُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَيُقْتَلُونَ بِكُلِّ وَادٍ !

وَقُلْ لِلَّذِينَ يَقُولُونَ : إِنْ الْخَلْقَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، أَيُّهُمَا أَعْظَمُ ؟ الْمَحِيطُ الْمَشْتَمَلُ ، أَمْ الْمَحَاطُ
الْمَشْتَمَلُ عَلَيْهِ كَمَا يَقُولُونَ ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . فَاذْ قَالُوا :
إِنَّمَا التَّحْمُ بَعْضُهُ دُونَ بَعْضٍ ، فَقَدْ حَدَّثُوا وَبَعَضُوا وَنَقَصُوا
وَأَنْتَقَصُوا ، وَإِنَّمَا قَالُوا فَلَنْ يَجِدُوا بَدَأً مِنْ أَنْ يَقُولُوا : إِنْ
بَعْضُ الْمَسِيحِ الَّذِي جَعَلُوهُ رَبَّهُمْ ، وَهُوَ إِلَهُ عِنْدَهُمْ مِيتَ بَعْضُهُ
جَيْفَةً ، وَإِنْ بَعْضُهُ حَيٌّ طَيِّبٌ ؛ لِأَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُ التَّحْمُ يَجْسَدُ
حَيٌّ فِيهِ رُوحٌ ، فَلَا بَدَأَ إِذَا أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ مَا يَدْخُلُ عَلَى
الْأَجْسَامِ الْحَيَّةِ مِنَ الْخُوفِ وَالْفَزَعِ وَالْفَرَحِ وَالْعَطَشِ وَأَشْبَاهِ
ذَلِكَ ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ كُفْرٌ عَظِيمٌ وَإِفْكٌ مُبِينٌ ، فَاتَّقِ عَقُوبَةَ اللَّهِ
رَبِّكَ ، وَلَا تَمْسَسْ مَكِبًّا عَلَى وَجْهِكَ ، وَلَكِنْ أَطْلُبْ وَأَتَمَسْ
وَأُبْحَثْ ، فَقَدْ قَالَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْإِنْجِيلِ « مَنْ سَأَلَ
أَعْطِيَ ، وَمَنْ طَلَبَ وَجَدَ ، وَمَنْ اسْتَفْتَحَ فَتُحِّحَ لَهُ » .

اجتمع العلماء والبصراء الذين عندك ، والأساقفة
والرهبان الذين قبلك فقل : لأى شىء نَسَبتم المسيح إلهاً
وجعلتموه رباً ، ونجد الله سمّاه فى الكتاب ابناً ، وقد تجدونه
قال « إني أذهبُ إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم أيضاً » وهذا
كلام يحتمل وجهين أحدهما أولى به ، وقول لا يحتمل إلا
وجهاً وهو الربوبية أم كيف تنظرون إلى كلامه « أذهب إلى
أبي وأبيكم » فتفردونها فى نفسه ، وقد قالها فيه وفى غيره .

فاتق الله وكن من القائمين بالحق ، الموحدين للرب . إن
أمير المؤمنين قد ضرب لك أمثالاً جمةً ، وصرف إليك مسائل
كثيرة ، وبين لك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم
وعلامات الوحي قليلاً من كثير ، واضحا من تفسير لا تمتنع
العقول من التصديق به ، ولا القلوب من الاقرار به .

وسيدكر لك أمير المؤمنين من علامات النبي صلى الله
عليه وسلم فى التوراة والانجيل ما يُكْتَفَى به إن شاء الله ،
وباليسير منه ، لأن كتب الله عز وجل محفوظة ، وحُجَجُه
محروسة . لايزاد فيها ولا ينتقص منها ، وإذا وجدتَ فيها

كلمة تدلك على حق وتهديك إلى رُشد ، فليست واجداً أخرى
تصدك عنه وتشككك فيه . إذا أتى ذلك بالحق ووُضع
على الصدق ، ولكن ضلّت اليهود والنصارى بتحريف
تأويل الكلام وتصريف تفسير الكتب ، وأمير المؤمنين
يسأل الله العِصمة والتوفيق .

من ذلك ما قد شهد به عيسى عليه السلام عندكم وبينه
في الانجيل لكم . إذ قال للحواريين : أنا أذهبُ وسيأتكم
البارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إنما يقول
كما يُقال له ، وهو يشهد علىّ وأنتم تشهدون لأنكم معي من
قبل الناس بالخطيئة ، وكل شيء أعد الله لكم يخبركم به .
وترجمة البارقليط . أحمد : هذا ملاشك ولا مرية فيه ، وهو
الذي يُخبر بما وعد الله المؤمنين وصالحى الحواريين فى القرآن
ولستم تجدون ذلك فى التوراة ولا فى الانجيل .

ومن ذلك قول أشعياً النبى عليه السلام : « قيل لى أقم
بطارا ماترى بخبرى ؟ قال : أرى را كين بعيرين مقبلين
أحدهما يقول لصاحبه . سقطت بابل وأصنامها المنجوتة » .

ولسنا نعلم نبيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا
محمدًا صلى الله عليه وسلم كثيرًا .

ومن ذلك قول داود عليه السلام : « اللهم ابعث جاعلَ
السُّنَّةِ كى يعلم الناسُ أنهم بشر » يقول كى يتبين الناس أن
عيسى عليه السلام إنسان . ولسنا نعلم نبيا وضع سنَّةً تُنسب
إليه إلا محمدًا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فإنه نصَّب سنَّةً
موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حَبَقوقَ المتنبىء في زمان دانيال : « جاء
الله من السماء والقديس من جبال فاران ، وأمتلأت من تحميد
أحمد وتقديسه ، ومسح الأرض بيمينه ، ومَلَك رقاب الأمم » .
وقال أيضًا : « تضىء لنوره الأرضُ ، وتُحْمَلُ خيلُهُ فى البحر » .
فإلى من ينحو هذا القول ، وإلى أين يُذْهَبُ بهذا المعنى ؟
لئن ذُهِبَ به إلى غير الذى تحمل خيلُهُ فى البحر ، وبدأ من
جبال فاران أمره ، وغلب على الأرض ومسحها ، ومَلَك رقاب
الأمم كلها : لقد تركتم الحق وأنتم تعامون .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى الزُّبُور : « صدَّقُوا
وسَبَّحُوا الربَّ تسبيحًا حديثًا سَبَّحُوا الذى هدَّاه الصالحون ،

ليفرح إسرائيلُ بخالقه ويتوب صهيونُ من أجل أن الله اصطفى له أُمَّته ، وأعطاه النصر وسدّد الصالحين بالكرامة يسبّحونه على مضاجعهم ، ويكبّون الله بأصوات عالية . بأيديهم سيوفُ ذاتِ شَفْرَتين . لينتقم الله من الأمم الذين لا يعبدونه ، ثم يقيّد ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال . « فإيما أُمَّة يكبّرون الله بأصواتٍ وأذان الصلوات الدائمة وعلى كل شرفٍ وعند كل حرب . وإيما أُمَّة كانت سيوفُها ذاتِ شَفْرَتين إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم !

ومن ذلك قول أشعياً : « سَبِّحُوا الرَّبَّ تَسْبِيحًا حَدِيثًا ، وَيَسْبِجْهُ مِنْ آفَاقِ الْأَرْضِ فَرِحَ يَكُونُ فِي بَنِي فَيَارِ » . وبنو فيار قريش أهل فاران الذي نزل فيه القرآن ، وإيما أُمَّة تسبّح من آفاق الأرض إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم عندي أكدي . ومن ذلك قول أشعياً : « عِبْدِي الَّذِي وَجِبَ بِهِ حَبِي الَّذِي بَشَرْتَهُ بِهِ نَفْسِي أَفِيضَ عَلَيْهِ رُوحِي ، يُوصِي الْأُمَّمَ بِالْوَصَايَا ، لَا يَضْحَكُ وَلَا يُسْمَعُ صَوْتُهُ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَيَفْتَحُ الْعَيُونَ الْعُورَ ، وَيُسْمِعُ الْأَذَانَ الضَّمَّ ، وَيُخْبِي الْقُلُوبَ الْعُلْفَ ، وَمَا عَطِيهِ لَا أُعْطِي غَيْرَهُ ، أَحْمَدُ يَحْمَدُ اللَّهَ حَمْدًا حَدِيثًا ،

تهليله يأتي من أقصى الأرض ، يجوز الماء بشدة أمواجه ،
ويفرح^(١) زكورها ، سكانها يحمدون الله على كل شرف ،
ويكبرونه على كل راية .

ومن ذلك قول داود عليه السلام في المزمور الخامس
والأربعين ، يقول الله عز وجل لمحمد في الزبور : « انصبت رحمتي
على شفتيك من أجل ذلك باركتك الدهر^(٢) » تقلد السيف على
الأمم أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسبأ بهك وحمدك
أحمد يغلب البرمنك كلمة الحق وذلت لك الأشياء سيفك
يحسمه عينك ونبالك مسمومة ويسقط عند الأمم . فأى
نبي كان على الأمم جبارا ولهم باذن الله قتالا إلا نبينا صلى الله
عليه وسلم .

ومن ذلك في آخر التوراة : « جاء الله تبارك وتعالى من
سيناء وأشرف من ساعير واستبان واستعلن من جبال فاران ،

(١) هكذا في الأصل .

(٢) في الأصل : « من أجل ذلك باركل الدهر . واستننا في تصحيحها
بالكتاب المقدس الذي وردت فيه الجملة هكذا : « وقد انصبت النعمة على شفتيك
فلذلك باركتك الله الى الأبد » . أما الباقي فلم نوفق إلى تصحيحه فأثبتناه كما
ورد بالأصل .

وجاء عن يمينه ربوات القديسين . وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى في طور سيناء ، وأنزل الانجيل على عيسى عليه السلام في جبل ساعير وهو جبل بالشام ، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في جبال فاران وهي بلاد مكة ، وأنتم تجدون ذلك في كتبكم مكرراً وتعرفونه جميعاً بلغتكم .

ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام « سَأَقِيمُ لَهُمْ مِنْ إِخْوَاتِهِمْ مِثْلَكَ أَجْعَلُ كَلَامِي عَلَى فَمِهِ وَلَا يَسْكُرْ إِلَّا بِمَا آمُرُ بِهِ » . فمن إخوة بني إسرائيل إلا بنو إسماعيل ؟ أما تعلم أن لو كان الله عز وجل يعنى أحداً منهم لقال لهم : أقيم لكم نبيا منكم ! .

فإن قلتم إنما قال من إخوتكم ، وهو يريد من أنفسكم ، فهب أمير المؤمنين قبل هذا الخلف منكم ووسع في هذا المجال لكم ، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل في التوراة : « مثل موسى في بني إسرائيل لا يقوم » فهل تجدون من هذا نخرجاً ومن الايمان أن المعنى وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدأ

ألا تسمع قول الله عز وجل : « أجعلُ كلامي على فمه
كمن يُعنى به أميُّ لا يقرأ ولا يكتب » .

أوليس قد أمر عيسى عليه السلام حوارييه أن يقولوا في
صلواتهم : « يا أبانا الذي في السماء تقدس اسمك » . كيف صار
عيسى دونهم أبنا وصار له دونهم أبا ، وهم يقولون : يا أبانا ! أم
كيف لم يُجعلَ سليمان بن داود إلهًا ، وقد قال الله عز وجل
لداود : « يُؤلد لك غلامٌ يُسمي لي وأُسمي له » ! ولمَ لا يجعلون
إسرائيلَ إلهًا وقد قال الله عز وجل له : « أنت بكرى » . بل
لمَ لا يُسمون المؤمنين عامةً والحواريين خاصة (آلهة) . وقد
قال المسيح للحواريين . أنتم إخوتي ، وقد قال في الانجيل :
« أعط كل من آمن بي سلطاناً يُدعى له » . وإن كان هؤلاء
كلهم للمسيح إخوة أفلا تجعلونهم كلهم آلهة . وكيف يقولون :
إن عيسى ابن الله ، وهو يقول في مواضع جمة وأما كن كثيرة إنه
ابن الإنسان فكيف يكون ابن الإنسان ابن الله؟ ومتى كان ذلك ؟
لئن قالوا: إن عيسى لم يزل ابن الإنسان . لقد جعلوا مع الله إنساناً
قديمًا وجعلوا الله إنساناً حديثًا ، وجعلوا المسيح ابن الله لم يزل ،

وابن الانسان فيما حَدَّثَ ، وهذه أمورٌ متناقضة ، وحجج
داحضة . وأقاويل فاحشة .

فان قالوا : إنما نعبد المسيح لأنه رُفِعَ إلى السماء ،
فليعبدوا الملائكةَ فإنهم في السماء قبله ، وإدريسَ فقد رفعه الله
وغيره ، وإن كانوا يعبدون المسيح لأنه لم يُخْلَقْ من ذكر ،
فأدمٌ وحواء لم يُخْلَقَا من ذكر ولا أنثى ، ولم يَقَعَا من غم
الرحم وضيق البطن وحال الصِّبا فيما وقع فيه المسيح .

وإن قالوا : إنما نعبد عيسى لأنه أحيى الموتى ، فما أحيى
حزقيل أكثر ، وما كان من اليسع تلميذِ إلياس أعجب لأنه
أحيى الموتى بعد مئتين من السنين . وإن طلبتم ذلك في سير
الملوك عند قصة اليسع أصبتموه إن شاء الله .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسقام التي
أبرأ العجائب والتي أرى ، فعجائبُ موسى أعجب وآياته أعظم
أين ما ذكرت لك من (عجائب) عيسى من عجائب موسى
من انقلاب البحر له ، وسلوك الجيش معه . أم أين ذلك من
حجرٍ يضربه فيتفجرُ بعيون الماء ، ويحمله معه حيث شاء ، ؟ .

بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس يُوسَعَ
الشمسَ ثلاثَ ساعاتٍ وكلُّ ما صنع موسى وعيسى وغيرهما
بإذن الله وأمره وقدره وقضائه . فاتق الله وكن من القائلين
بالحق ، الموحدين للرب ، ولا تقل على عيسى ما لم يقل فانكم
لا تجدونهُ قال لكم في شيء من كتبكم : اعبدوني فإني ربكم .
تعالى الله عما يقول الظالمون . ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحب أن ينصح لك في أوّل
داريك بك وأهمّ شأنك لك ، فدعاك إلى الاسلام وأمرك
بالإيمان الذي به تدخل الجنة وتنجو من النار ، فإن قبلتَ
فحظّك أصبت ، ونفسك أحرزت ، ولك ما للمسلمين ،
وعليك ما عليهم ، وإن رددت نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه
الخطأ في آخرتك ، فإن أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه
الصلاح في حاجتك : من إعطاء الجزية التي يحقن الله بها
دماءكم ويحرّم بها سباءكم ، ويجعلها قواماً لمعاشكم ، وصلاًحاً
لبلائكم ، وتوفيراً لأموالكم ، وأمناً لجانابكم ، وسعة لسريركم ،
وبركة على فقرائكم ، وغنى لأهل الحاجة والفاقة والسكنة منكم .

ولن يذكر أمير المؤمنين في الجزية لكم من حلول الأمن
فيكم وعموم العافية إياكم ، وأستقامة البركة عليكم . وكف أيدي
المسامين عنكم ، وبسطها على الأعداء منكم شيئاً إلا وفي قليل
ما كان من أشباه ذلك أيام تلك الفدية التي كان الله أجرى نعمتها
لكم على يده ، وفتح بركتها عليكم من قبله ، ما يدرككم على
صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهد له على حقه فيما يقول
إن شاء الله . فقد تعامون أن الله قد أدخل على كل طرف من
أطرافكم ، وصنف من أصنافكم بتلك الفدية أموراً عظيمة
البركة ، واسعة المنفعة في أمور غير واحدة .

منها : أن قادة جنودكم وساسة حربكم كانوا بعد وقوع
أمرها وأستحكام عقدها فراناً لمحاربة أعدائكم ومناصبية من
ناوأكم بين أن يستجمعوهم في بلادهم وينزلوا عليهم في ديارهم ،
ولا يرهبون تمقّب بشرٍ إن ساروا في أرضهم ، ولا يتخوفون
طراداً إن اجتمعوا لقتالهم أن يقيموا في خفضٍ ودعة وأمنٍ
وسعة مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمحال
وهم اليوم يترقبون الجيوش من كل شعب ويتخوفون الختوف

في كل وقت لا يهدأ لهم جأش ، ولا يسكن لهم فزع ،
ولا ينام لهم ليل ، ولا يأمن فيهم حال قد قَطَعَتِ الهُمومُ
دايرهم ، وأضمرت المخاوفُ جُنُوبَهُمْ . وأستأصلت الجنودُ أموالهم .
ومنها : أن أهل الحِرَاثَةِ وإخوان العمارة في بلادك
وأطراف أرضك كانوا سِرَاعًا إلى عمارة أرضهم وإصلاح
ماتحت أيديهم . فيما لا قِوَامَ لهم ولا لِمَعَاشِهِمْ إلا به : ولا بقاء
لديهم إلا معه . قد أمِنُوا الجيوشَ ومَعَرَّتْهَا والجنودَ وبَادَرْتَهَا .
وَأَنْتَشَرُوا للعمارة . وأبْتَكِرُوا في الزراعة . فارقوا رِءُوسَ الجبال
وإقحام الغياض ، وراحوا في أواسط أوطانهم وظلال مَحَامِهِمْ .
يَشْتَقُّونَ الأنهار ، وينرسون الأشجار ، ويُفَجِّرُونَ العيون . حتى
نَمَتِ الأموال وَأَخْضَرَّتِ الحَال ، وأخْصِبَ الجَنَاب ، وأصبحوا
اليوم عن الزراعة ممسكين ، وللحِرَاثَةِ تاركين ، وبغيرها
مشتغلين في إصلاح آلات الحرب ، وإحراز العيال في الحصون
ورمَّ القلاع للجلَاء وتحرّيش الحصون للبلاء ، قد أنتقلوا عن
منابت البر وكرائم الأرض ، ومجارى المياه ، إلى أوْشال الجبال .
وأشجار الغياض ، وبطون الأودية ، فليس يبلغون من عمارة

بلادهم وزوم أوطانهم (و) من تناول ثمارهم وقوام معاشهم
مثل ما كانوا يبلعون ، ولا ينالون من خفض العيش وطيب
الأمن ولذة الدعة قريباً مما كانوا ينالون .

ومنها : أن إخوان التجارات ، وأصحاب الأموال وأهل
الظلف والحافر ، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم
من أسواقنا ، فينفقون تجارتهم ويغنون بضائعهم ، فتعظم
الأرباح وتضعف الأثمان ، وكانت الباعة من تجار المسلمين
وغيرهم من الدمين ، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء
منهم ، فعمت البركة وسهلت المنفعة ، حتى نالت الرعاء في
جبالها واقبالها والنساء في غزولهن وعمل أيديهن فضلاً
عن غيرهن .

ومنها : أنك ومن قبلك من ذوى العبادة والزهادة
والتأله والنسك والنيات كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب ،
وسلامه من أوزار الحض على قتال الخوف ، قد نجوتهم من
معصية المسيح في الدنيا التي نهاكم عنها ، والأمور التي أمركم
بها ، من نحو قوله : « مَنْ لَطَمَ خَدَّكَ الْأَيْمَنَ فَأَمَكْنَهُ مِنْ

الأيسر ، ومن أنتزع قبيصك فأعطه كساءك ، ومن لطمك
فاغفر له ، ومن شتمك فأعرض عنه .

ومنها : أن من بأقاصى بلادك ونواحي حوزتك ، قد
ذاقوا تلك الأيام من لذة الحفص ، ودعة الحال ، وحلاوة
الأمن ، ورفاهية العيش ، وسعة العافية من سبأ أزواجهم ،
وهيئض أولادهم ، وحطم معاشهم ، وأسر رجالهم ، وغنيمة
بقرهم وغنمهم ، وإفساد شجرهم وثمارهم . وإجلاء عن مساكنهم
وأوطانهم ، ما لم يكن لهم رأى يعرفه ، ولا ظن يبلغه ،
ولا طمع يقاربه . ولا أمل يذهب إليه ، وما قد عرفت الخالصه
من بطارقتكم ، والعامه من أهل ملتكم به ، من رأفتكم بهم ،
ورحمتكم لهم ، وشفقتكم عليهم ، وأثرتكم إياهم ، وبركة
ولايتكم ملكهم ، ومنفعة سياستكم أمرهم . ما قد أزدادوا لكم به
حبه ، وفي بقائكم رغبة ، ولأمركم طاعة ، وعلى ملككم
شفقة ، وفيما نأبكم نصيحة مع ما قد ازددتكم بذلك من الهيبة في
صدور الأعداء ، والشرف في قلوب النظراء ، والعظم في
عيون الأمم ، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول ، وفضل

سياسة الأمور ، وصحة تدير الملك ، وصدق النية ولطف الحيلة
التي جعلوا نسبة عمالكم بها ، ومحل رأيكم فيها على أنكم نظرتهم
لضعفائكم حتى قوؤوا ، ولفقراءكم حتى استعنوا ، ولقرايكم
حتى بينوا وحيوا وقووا المسامين من أيام الحروب وأوزلوا
القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأبعدين
وجيرتكم الأقرين ، حتى كتتم من فراغكم لهم ، واشغالكم
من أمركم بها ما أوطأتموه لحيبحر^(١) القتل ، وذل الأسر
وغلبة القهر ، والإذعان والاستسلام ، وإما كفيتموهم بالصلح ،
واستوثقتهم منهم بالرهن .

فاذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في الفدية ،
فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم في الجزية فلا يكونن لك
رأى غيرها ولا أمر سواها ، فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب
من أمركم ، وأطال تقليب الفكرة في بعضكم فظن أن إخراجكم
من جميع ما كتتم فيه إلى خلافه مما أصبحت عليه من انتظار
وقعات الحروب ، وصولات الجنود وأكل الحدود ، وتوقع

(١) هكذا في الأصل .

الجلال، والسبأ والقتل، والأسر والحصر شيئاً اختدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيداً استدركم به لما علم من قلوبكم .
إلا أن أعجب عذرکم وأفظمه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتكم على الله عز وجل في نقض عهده، وأستخفافكم بحقه في خفر ذمته . وتهاونكم بما كان منكم وأنتم تعلمون أن موثيق اليهود ونذور الأيمان الذي وضعه الله عز وجل حرماً بين ظهراني خلقه، وأماناً أفاضه في عبادته، لتسكن إليه نفوسهم، وتطمئن به قلوبهم، وليتأملوا به فيما بينهم، ويقيم به من دنياهم ودينهم فما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم تبیح حى الله عز وجل تهاونا به وجرأة عليه إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء، وأنزل عليهم عذاباً من السماء، وقد رجا أمير المؤمنين أن يجرى الله نقمته منكم بأيدي المسامين بعد إذ كان أعتقد عهدكم، وأخذ ميثاقكم بالأيمان المغلظة واليهود المؤكدة التي قد اعتقدها في رقابكم، وحملها على ظهوركم، فأشهدتم الله بها على أنفسكم، وتسامع بها من حولكم، وحكم بها

بطارقتكم وأسافقتكم ، فلا الله أتقيتم ، ولا من الناس أستحييتم
نكثاً للمهد ، وبنضاً للمسامين ، وختراً بالأمانة ، وإباحةً
للحمى ، فتوقموا العقوبة ، وانتظروا الغيب ، فلقد وثق أمير
المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حالٌ إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم ، ما أزمع
أمير المؤمنين وعزم عليه ، وقذف الله في قلبه : من الإرادة
والنية والرغبة في إيطاء الجيوش بلادكم ، واستبءاء المقاتلة أرضكم
والنفرغ لـكم من كل شغل ، والايثار لجهادكم على كل عمل ،
حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائمون أو كارهون ، وتؤدوا الجزية
عن يدٍ وأنتم صاغرون ، فكروا على عدة من الجزية ، ويقين
من الاتجاع الذي لا طاقة لـكم إن شاء الله به ، ولا صبر لـكم
بإذن الله عليه ، فإن جنود أمير المؤمنين فارغة كثيرة ، وخزائنه
عامرة وافرة ، ونفسه سخية بالانفاق ، ويده مطلقة بالبذل ،
والمسامون نشاط إليكم ، منقلبون عليكم قد عودهم الله في
لقاءكم عادة يرجون انتظار مثلها ، وأبلاهم في قتالكم بلاء من
أمثالها ، إن شاء الله .

وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدي جنوده ، ومُقدّمه
إن شاء الله من جيوشه ، إلا أن تؤذوا الجزية عن التي دعاك
أمير المؤمنين إليها ، وحداك ومن قبلك عليها رحمة للضعفاء الذين
لا ترجمهم ، وتوجعاً للمساكين مما لا توجع منه لهم من الجلاء
والسبأ والقتل والأسر والقهر ، وقساوة من قلوبكم وأثرة
لأنفسكم ، واعتصاما بخواصكم ، واجلاء لعوامكم الضعفاء
الفقراء المساكين الذين لا تمنونهم بقوة ، ولا تدفعون عنهم
بجيلة ، ولا تراقبون في الرحمة لهم والتعطف عليهم . أدب
المسيح إياكم ، وقوله في الكتاب لكم : « طوبى للذين
يرحمون الناس ، فإن أولئك أضياء الله ونور بنى آدم » .

وأيّ الله لو يعلم من قبلك من المساكين والزراعيين
والفقراء والضعفاء والعلة بأيديهم ما لهم عند أمير المؤمنين
لتحدّروا عليه وأقبلوا إليه من إيوائهم ، واترأهم الأرض
الواسعة ، وإمكانهم من مسايل المياه السائحة ، والعدل عليهم
بما لا تبلغه أنت ولا تقاربه رفقاً بهم ونظراً لهم وإحساناً إليهم

مع تخليته إياهم وأديانهم لا يُكرههم على خلافها ولا يجبرهم على غيرها لا اختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك ، وجواره على جوارك ، ولأ تقذوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم مما يحل بهم في كل عام ويلقون من كل غزاة ، فاتق الله وأقبل ما عرض عليك من الجزية ، ولا يمنعنك ما فيه الحظ لك ولأهل مملكتك ، ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ، ويدفعه عنكم . إلا يجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الورثة فيهم للكتاب والحكمة الذين لا يدخل عليكم في الإذعان لهم وأداء الجزية إليهم حمية ولا تقيصة ولا عار . والذين يفون لكم بما يعقدون ويتبعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظرة من البر والرحمة والاقساط والوفاء بالعقود والمعهود والشروط . نظراً لدينه وخوفاً من ربه . ولما قذف الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، واتفاق الأفتدة ، والنصائح في

السرى والعلانية ، وما عوّده الله ممن نصب له بمجازبة ورماه
بمكيدة ، وعراه بحيلة : من النصر العزيز ، والفتح القريب ،
والظفر المين ، فابدّل من الجزية ماشئت ، وسمّ منها
ماهويت ، واعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به
إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها
سبباً لما يريد أن يجرى فيما بينه وبينكم ، وإنه إنما كان
قبول المهدي - رحمه الله - الفدية منكم بطلبة أمير المؤمنين
كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه ، ولم يكن من رغبة
فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا أستعظام لها ، ولقد كان يعطى في
المجلس الواحد مراراً أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير
المؤمنين يومئذ فيكم . فأما اليوم إذا استبان له غدركم
وتقضكم ونكثكم واستخفافكم بدينكم وجرأتكم على
ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم إلا الإسلام أو
الحرب المجلية إن شاء الله ، ولا حول بأمر المؤمنين ولا قوة
إلا بالله ، عليه يتوكل ، وبه يثق ، وإياه يستعين ، والسلام على
من اتبع الهدى .

الخاتمة

تمت رسالة قدوة المحققين أبي الربيع محمد بن الليث ، وقد أدى الأمانة ووفى للإسلام حقه . مع الدقة في البحث . والمتانة في التدليل . والسهولة في الإقناع والقوة في الحجة . أحسن الله جزاءه وطيب ثراه . ونفع المسلمين بعلمه وعمله . وهدى أولئك الذين طمس الله على قلوبهم إلى الحق وردّ كيد الخائنين في نحورهم وكفى الإسلام شرمكرهم

أيها المسلمون اعملوا غير هيا بين . واسعوا غير وجلين . لإعلاء شأن دينكم . دين الفطرة والهدى . دين المدنية والثقافة . دين العلم والمكارم ، واخلموا عنكم رداء الكسل . حتى يصلح الله حالنا . ويجمع شملنا ويوحد قوتنا . ويرفع علمنا . ويسدّد خطواتنا ، انه سميع قريب مجيب « ربنا إننا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين » ربنا « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » آمين .

اسعد لطفى حسن

بحمد الله تعالى تم طبع رسالة «أبي الربيع محمد بن الليث
إلى قسطنطين ملك الروم» مصححاً بمعرفة

أحمد سعد علي

من علماء الأزهر الشريف ورئيس التصحيح

(القاهرة في يوم الخميس غرة رجب الفرد سنة ١٣٥٥ هـ -

١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٦ م)

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبي

ملاحظ المطبعة

محمد أمين عمران

9.

الاسلام

ديني . أخلاقي . أدبي . اجتماعي

كتاب يهدي الخلق الى الحق . ويدعو الأنام الى الاسلام
ينفع الطالب والمتعلم . ويفيد الفقيه والمتفقه

مطبوع بحرف واسع على ورق عال صفحاته ٣٧٤
ثمنه ١٢ قرشا عدا أجرة البريد

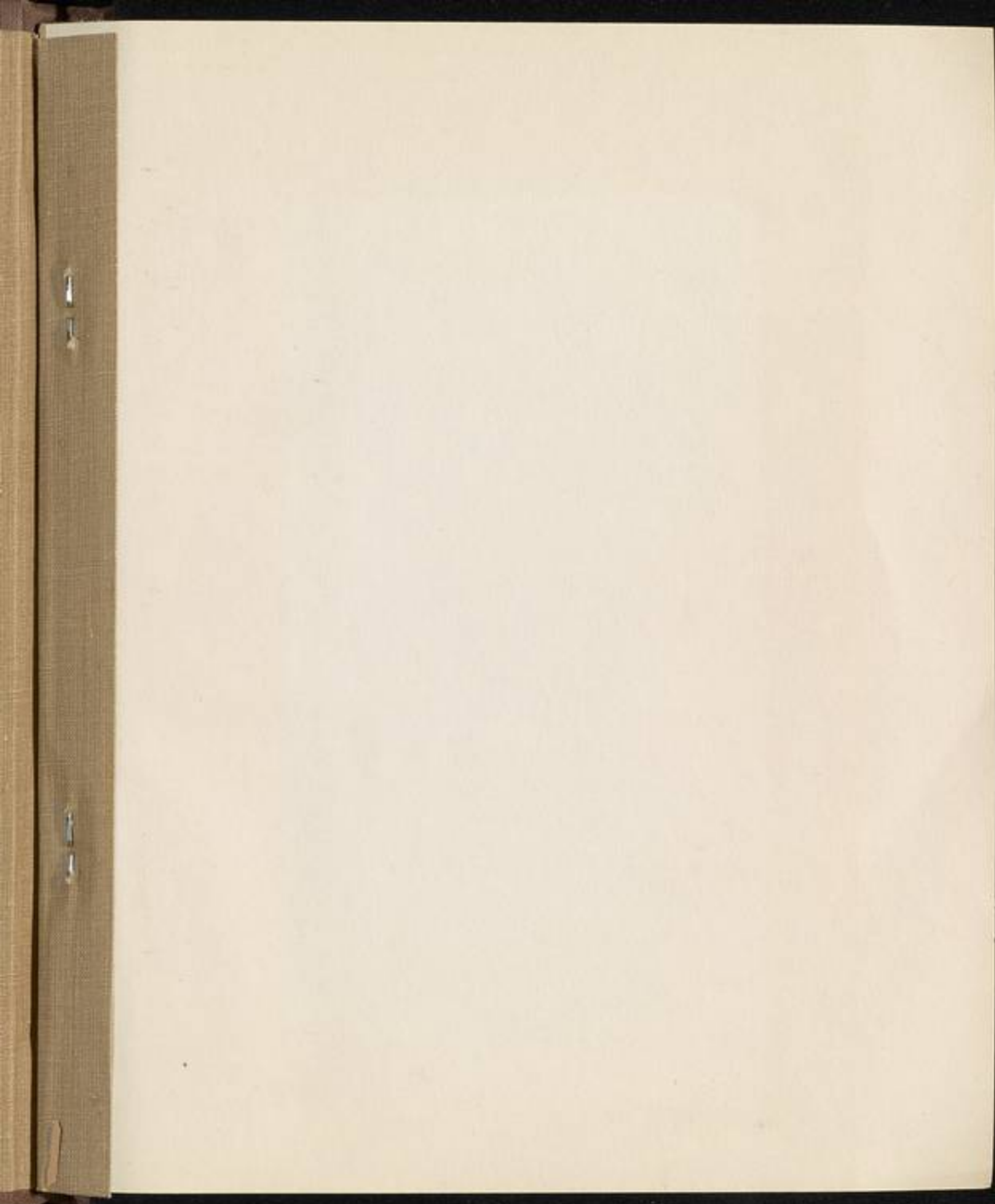
أطلبوه من :

مكتبة مصطفى البابی الحلبي وأولاده

مصر - ص . ب . النورية رقم ٧١

الفهرس الشامل لأسماء الكتب ومعه (قائمة) بأنواع المصاحف الشريفة وغيرها
يرسل لمن يطلبه . « هدية »





893.791
M898

FEB 28 1963

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58894306

893.791 M898

Risalat Abi al-Rabi

893.791 - M898